مرض القلب في القرآن

د. خالد بن موسى الحسني الزهراني[*]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنـــزل القرآن هدى للناس، وجعله بينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على البشير النذير، محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه وسلم أجمعين، وبعد،،

فإن أعظم ما اعتنى به الأنام، وأكرم ما تصرفت فيه الأقلام، فجاهدت فيه العقول تفهماً وتدبراً، وجهدت فيه الأبدان تطبيقاً وعملاً، كتاب الله – تعالى– الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـــزيل من حكيم حميد. فهو العين الثرة، التي لا تنضب تأملاً وتفكراً، ولا تنقص في خيرها احتسابا وأجراً، بل كلما ازداد المتأمل أو القارئ منه قرباً تبينت له عظمته، وانكشفت له مهابته وقدره، وتعلقت به نفسه، وازداد بكل ذلك ثوابه وأجره، حتى إنه ليعز عليه أن يفارقه، ولا غرابة فهو كلام الله – تعالى– العظيم، وصدق أمير المؤمنين ذو النورين عثمان ﷺ إذ قال: لو طهرت

(*) الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة الباحة.

قلوبكم ما شبعت من كلام الله ﷻ[١].

وإن من أجلِّ نعم الله – تعالى– علي بعد الهداية للإسلام أن ضمني في سلك الدارسين لكتابه، وهداني للتخصص في تفسيره وعلوم قرآنه، فاغتبطت بذلك غبطة لا يعلم قدرها إلا الله، لا أوفي شكرها بل ولا حتى النـــزر اليسير منه ولو واصلت عمري الليل بالنهار لهجاً باللسان، وعملاً بالجوارح والأركان، فله الحمد كله، وله الشكر جميعه، له الحمد حتى يرضى، وله الحمد بعد الرضى، وله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه ولعظيم سلطانه.

وإن مما توجهت له الهمة، خدمة لكتاب ربنا ﷻ، تأمل الآيات التي ورد ذكر مرض القلب فيها ودراستها، فعقدت لذلك العزم، وتوجهت له بالهمة، لما له من أهمية ستتضح مما يلي.

أولاً: أهمية الموضوع:

تظهر أهمية موضوع مرض القلب في القرآن الكريم من خلال النقاط التالية:

١- أن هذا الموضوع من جملة الموضوعات القرآنية، فدراسته وتسليط الضوء عليه، يعتبر خدمة للقرآن الكريم.

٢- أن تناول الموضوعات القرآنية موضوعيا يبرزها بصورة أوضح وأدق؛ لأنه يعتمد على جمع آيات الموضوع المفرقة في سور القرآن، ثم النظر إليها بنظرة شمولية متكاملة.

٣- أن العناية بما يتعلق بالقلب يعتبر من أولى ما اهتم به العقلاء، واعتنى به الفضلاء، فهو مضغة يحملونها في أجوافهم، بها صلاحهم، وعليها عمدة فلاحهم، فمن اهتم بها فحفظها من الشبهات المضلة المهلكة، والشهوات الفاسدة المردية، فقد زكاها، وحافظ على أصل فطرتها.

(١) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة ﷺ برقم [٧٧٥]، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٠/٧).

والمتأمل في نصوص القرآن والسنة يلحظ بجلاء العناية الفائقة بالقلب، والتوجيه بالحرص عليه وصيانته مما يمرضه أو يميته.

قال – تعالى-: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: من الآية ٤٦]، فدلت الآية على أهمية القلب، فهي بمنطوقها تعلمنا بأن العمى الحقيقي عمى القلب بذهاب نوره وبصيرته لا عمى العين بذهاب نورها وبصرها. ودلت بمفهومها على تزكية القلب المؤمن الحي؛ لأنه القلب الذي ينتفع بما يعرض له، بخلاف من فسد قلبه فلم يتعظ بمنظر أبصره أو كلام سمعه.

وفي الصحيح من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن النبي ﷺ قال: **"ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب"**(١)، فجعل النبي ﷺ القلب أساس صلاح الإنسان، فمتى صلح حكم بصلاح صاحبه وحسن عاقبته، وبقدر ما يخرج القلب عن حد الاعتدال والصحة ينقص من صلاح العبد، وبالتالي يحكم بمدى عاقبته.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"إنَّ الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"**(٢)، فجعل النبي ﷺ مكان نظر الله – تعالى- من الإنسان القلب؛ لأنه الذي يحكم به على الإنسان حقيقة.

ثانياً: منهج البحث وخطته:

اعتمدت في بحثي لهذا الموضوع على المنهج الاستقرائي، وذلك بتتبع المواطن التي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم: [٥٢]. ومسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم [١٥٩٩].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره وذمه وعرضه وماله، رقم [٢٥٦٤].

ذكر فيها مرض القلب في القرآن الكريم وجمعها، ثم تتبع أقوال العلماء حول هذه الآيات، ثم تقسيمها والحديث حولها، للخروج بصورة أكثر وضوحاً ودقة حول هذا الموضوع، فجاء البحث في هذا الموضوع وفق الخطة التالية:

- **المقدمة**، وتتضمن: أهمية الموضوع، ومنهج البحث فيه، وخطته.
- **المبحث الأول: مرض القلب لغة واصطلاحاً، وفيه:**

أولاً: تعريفه باعتبار المركب الإضافي.

ثانياً: تعريفه اصطلاحاً.

- **المبحث الثاني: صيغ مرض القلب في القرآن، وفيه:**

أولاً: المرادفات.

ثانياً: المقابلات.

- **المبحث الثالث: سياقات مرض القلب في القرآن.**
- **الخاتمة.**
- **المصادر والمراجع.**
- **الفهرس.**

هذا وأسأل الله – تعالى– العليم أن يرزقنا فهم كلامه وكلام رسوله ﷺ على ما يرضيه، وأن يستعملنا في خدمتهما، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يجعل ما سطرناه في هذا البحث وفي غيره ذخراً لنا يوم نلقاه، وأن ينفع به من قرأه وأفاد منه، أو راجعه وتعقبه، فهو المسئول وحده، والمؤمل لا غيره، فله الحمد كله، وله الشكر جميعه، فهو وحده الذي بنعمته تتم الصالحات.

د/ خالد بن موسى الحسني الزهراني

مكة المكرمة، حرسها الله

١٠ / ٩ / ١٤٣٦هـ

Dr.k_alhassani@hotmail.com

المبحث الأول
مرض القلب لغة واصطلاحا

وفيه:

أولاً: تعريفه باعتبار المركب الإضافي.

ثانياً: تعريفه اصطلاحاً.

أولاً: تعريفه باعتبار المركب الإضافي:

(**مرض القلب**) مصطلح شرعي، ورد في جملة من آيات القرآن، وهو مركب إضافي، تركب من كلمتين (مرض، القلب)، وقبل أن نُعرِّف مصطلحه الشرعي ونقف على حقيقته لا بد من الوقوف على معنى كل كلمة على حدة، فنقول:

- **المرض لغة:**

(مَا يَخْرُجُ بِهِ الإِنْسَانُ عَنْ حَدِّ الصِّحَّةِ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ)[1]، وهو السقم والاعتلال نقيض الصحة[2]، ويكون في الأمور الحسية كمرض الإنسان في عضو من أعضائه، قال – تعالى–: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء: من الآية ١٠٢] فأذن الله – تعالى– لمن كان به من المرض ما لا يمكنه من حمل السلاح في الرباط أن يضعه.

ويكون في الأمور المعنوية كمرض النفاق – والعياذ بالله – قال – تعالى–: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠]، ومنه قيل: رأي مريض، أي: جانب فيه صاحبه الصواب[3].

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس مادة (مرض) (٣١١/٥).
(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور مادة (مرض) (٢٣١/٧).
(٣) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري مادة (مرض) (٢٠٦/٢).

أما في الاصطلاح: فهو خروج الإنسان حسًا أو معنى عن حد الصحة إلى السقم والعلة.

- **القلب لغة:**

يطلق في اللغة على معنيين ذكرهما ابن فارس[١]:

الأول: خالص الشيء وشريفه منه، ومنه قلب الإنسان وغيره، سمي به لأنه أشرف ما في الإنسان وأخلصه؛ دل على ذلك النص الصحيح، كما في حديث النعمان بن بشير ﷺ مرفوعًا: "إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ"[٢].

الثاني: رد الشيء من جهة إلى أخرى، ومنه قلب الأمور عن وجهها، وهو أيضًا أصل صحيح لقلب الإنسان، سمي به لكثرة تقلبه من حال إلى حال، كما في قول الله - تعالى-: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: من الآية ١١٠]. أي: هي بأيدينا نصرفها كيف نشاء، فنهدي من نشاء بفضلنا، ونضل من نشاء بعدلنا[٣]؛ ولذا صح عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ- رضي الله عنهما- أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**"[٤].

أما في الاصطلاح: فهو مضغة في جوف الإنسان معلقة بالنياط، أي: العروق التي

(١) انظر: مقاييس اللغة مادة (قلب) (٥/١٧).
(٢) سبق في ص (٢).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢/٤٥).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب: تصريف الله - تعالى- القلوب كيف شاء، رقم [٢٦٤٥].

تعلق بها القلب[(١)].

ويطلق في النصوص الشرعية ويراد به أحيانًا هذه المضغة، كما في حديث النعمان ابن بشير ﷺ الذي سبق.

ويراد به أحيانًا أخرى العقل، كما في قوله - تعالى-: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق:٣٧]، أي: عقل، فأدرك به الموعظة، واتعظ بحال من قبله[(٢)]، فعبر عن العقل بالقلب مع كون العقل في الرأس لتعلقه به[(٣)].

ثانيًا: مرض القلب شرعًا:

مرض القلب وصف أكثر ما أطلق في القرآن على النفاق الاعتقادي (الأكبر) المخرج من الملة، وقد يراد به: ضعف الإيمان ومشابهة أهل النفاق الاعتقادي في بعض صفاتهم العملية كالفسق، فهو شامل لنوعين اثنين: الشبهات والشهوات.

والنفاق أخص من مرض القلب، ومرض القلب أعم منه؛ لأن النفاق من أمراض القلوب، وهو أعظمها وأشدها والعياذ بالله.

فالقلب إما أن يكون صحيحاً وهو قلب المؤمن الصادق المشار إليه في حديث النبي ﷺ الذي رواه حذيفة ﷺ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ- يَقُولُ: "**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ...**"[(٤)]، قال النووي: تشبيهه بالصفا

(١) انظر: لسان العرب مادة (قلب) (٦٨٧/١).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٧٢/٢٢).
(٣) انظر: لسان العرب مادة (قلب) (٦٨٧/١).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، رقم [٢٣١].

لِشِدَّتِهِ عَلَى عَقْدِ الإِيمَانِ وَسَلَامَتِهِ مِنَ الْخَلَلِ، وَأَنَّ الْفِتَنَ لَمْ تَلْصَقْ بِهِ وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ كَالصَّفَا، وَهُوَ الْحَجَرُ الأَمْلَسُ الَّذِي لا يَعْلَقُ بِهِ شَيْءٌ[(١)]، أي: من أمراض الشبهات والشهوات.

وإما أن يكون ميتاً – والعياذ بالله – وهو قلب الكافر الجاحد، سواء كان مستعلنًا بذلك أو مسرا به،كما قال – تعالى– مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النمل:٨٠]، قال الطبري– رحمه الله–: (إنك يا محمد لا تقدر أن تُفهِم الحقّ من طبع الله على قلبه فأماته؛ لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه)[(٢)].

وإما أن يكون مريضاً معتلاً وهو الذي خرج عن حد الاعتدال والصحة إلى المرض والسقم، وهو مراتب متفاوتة على حسب ما قام به من داء ومرض، فمنه وهو أشده مرض الشك المؤدي بصاحبه إلى الكفر أو النفاق الأكبر والعياذ بالله، ومنه ضعف الإيمان، وهو لبعض أهل الإسلام الذين لم يصلوا من اليقين وشواهد الحق إلى صحة القلب وسلامته.

وهذه الأقسام الثلاثة يجمعها حديث المسند عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **"الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ[(٣)] فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ[(٤)] مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ[(٥)].**

فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ:

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٧٢/٢).
(٢) تفسير الطبري (٤٩٥/١٩).
(٣) الأجرد: الذي لا غلاف عليه، والمراد: بيان طهارته ونظافته من أمراض الشهوات والشبهات.
(٤) الأغلف: الذي عليه غلاف يمنع دخول الحق إليه، وهو المعبر عنه في القرآن بالطبع والختم.
(٥) الـمُصْفَح: صفح الشيء وجهه وناحيته، والمراد به: المنافق الذي له وجهان يأتي كل قوم بوجه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٤/٣).

فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ"[1].

وأمراض القلوب نوعان: أمراض الشبهات، وأمراض الشهوات، وكلها تمرض القلب وتنقص الإيمان.

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من آياته إلى هذين المرضين، وأمر المؤمن بأن يدعو الله – تعالى– في كل ركعة من صلاته أن يسلمه من كليهما، وذلك في دعاء المصلي بسورة الفاتحة بقوله: ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧** ﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧]، فسؤال الله السلامة من صراط المغضوب عليهم، سؤال للسلامة من أمراض الشهوات، وسؤاله – سبحانه– السلامة من صراط الضالين، سؤال للسلامة من أمراض الشبهات، والموفق من سلم منهما[2].

فمن الآيات التي ورد إطلاق مرض القلب فيها على الشبهات: غالب الآيات التي وردت في المنافقين، ومن ذلك: قول الله – تعالى–: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا** ﴾ [البقرة: من الآية١٠]، وقوله – تعالى–: ﴿ **فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ۝٥٢** ﴾ [المائدة:٥٢].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم [١١١٢٩]، وهو عند ابن أبي شيبة في مصنفه موقوف على حذيفة ﷺ، رقم [٣٠٤٠٤]، ورقم [٣٧٣٩٥]، وذكر ابن كثير في تفسيره رواية أبي سعيد، وقال: هذا إسناد جيد حسن (١٩٣/١).

(٢) انظر: التفسير لكبير (١٥٧/١)، وتفسير السعدي (٤٢).

وكذلك التي وردت في الكفار الشاكين، وذلك في آية الحج، قال – تعالى–: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الحج: من الآية ٥٢].

ومن الآيات التي ورد إطلاق مرض القلب فيها على الشهوات: بعض الآيات الواردة في المنافقين بميلهم إلى الزنى ونحوه، كآية الأحزاب، وهي قول الله – تعالى–: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠].

أو التي شملتهم وغيرهم من ضعاف الإيمان وفساق أهل الملة، بميل قلوبهم إلى الفسق كالزنا ونحوه، وهي قول الله – تعالى– في سورة الأحزاب: ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٢][1].

* * *

(١) انظر: أضواء البيان (٥/٢٩٠).

المبحث الثاني
صيغ مرض القلب في القرآن

وفيه:

أولاً: المرادفات.

ثانياً: المقابلات.

أولاً: المرادفات:

المرادف: ما تعددت أسماؤه مع اتحاد مسماه، وهو يقابل في المعنى المشترك اللفظي[1]، وقد تميزت به اللغة العربية لغة القرآن على غيرها من اللغات، دلالة على اتساع ألفاظها وتنوع تراكيبها.

والمراد به هنا: ما ذكر في القرآن بغير لفظ المرض دلالة عليه، وأَطلقتُ عليه مرادفا من باب التجوز وإلا فهو نوع من أنواع مرض القلب؛ لأن عمله كعمل مرادفات الألفاظ القرآنية، في كون كل لفظ باستقلاله يدل على بعض اللفظ القرآني في سياقه، ولو لم يؤد معناه من كل وجه؛ لأن ألفاظ القرآن بلغت الذروة في الفصاحة والبلاغة. ومن هذه الألفاظ:

١- قسوة القلب:

قسوة: من قسى يقسو قسوة، إذا غلظ وصلب واشتد، والمراد بها في القلب: ذهاب لينه ورحمته وخشوعه، وقلة خيره وانفعاله للطاعة وسكونه للمعصية[2]. وهي صورة من مرض القلب تخرجه عن صحته وحالته الطبيعية، تتفاوت بحسب القسوة،

(١) انظر: التعريفات، للجرجاني (٢٠٨).

(٢) انظر: مقاييس الغة مادة (قسو) (٨٧/٥)، ولسان العرب مادة (قسو) (١٨١/١٥)، والمحرر الوجيز مادة (قسو) (٢٦٤/٥).

فلربما أوصلته إلى الموت – والعياذ بالله – وذلك حال تمكنها منه، كوصف اليهود والنصارى والكفار به في القرآن، أو تكون دون ذلك فتمرضه من غير أن تقتله، كما تشير إليه آية التوبة في منة الله – تعالى– على الأمة بجعل نبيها على الرأفة والرحمة، مع وجود مثل هذا الوصف في أفراد من أمة الإسلام.

وقد أطلق هذا الوصف في القرآن في حق اليهود مع كفرهم حين تمادوا في غيهم فأنكروا الحق بعد ثبوته، كما فعل الذين أصروا منهم على إنكار قتل النفس المحرمة حتى بعد أن أراهم الله من الآيات ما يفضح حالهم بإحياء المقتول ونطقه بالشهادة عليهم بقتله في قصة بني إسرائيل في ذبح البقرة، قال – تعالى–: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: من الآية ٧٤][(١)].

وكذلك أطلق في حقهم تهوينًا على النبي ﷺ وأصحابه وتسلية لهم حين كادهم يهود فنقضوا العهد وهموا أن يبسطوا أيديهم بقتال المسلمين، بأنَّ نقض العهد سجية خيارهم، فقد نقضوا عهد الله الذي أخذه عليهم رغم تعدد نعمه عليهم وأياديه عندهم فكيف بأراذلهم، وذلك لغلظ قلوبهم وشدتها عن قبول الحق والإذعان له، قال – تعالى–: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: من الآية ١٣][(٢)].

وجعله الله – تعالى– وصفًا لبني إسرائيل يهودًا ونصارى، وذلك أنهم كفروا وتركوا مواعظ الله – تعالى– لهم، وجعلوها وراء ظهورهم، ولم ينتفعوا بكتبهم بل حرفوا وبدلوا، فحذر الله – تعالى– أمة محمد ﷺ من أن يكونوا مثلهم، فقال – تعالى– : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٢٣٣).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٢٥)، والمحرر الوجيز (٢/١٦٩)، وأحكام القرآن، للقرطبي (٦/١١٦).

﴿مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦][1].

كذلك أطلق وصف قسوة القلب على كفار قريش الذين تمكن الكفر والعياذ بالله من قلوبهم، كأبي جهل وأبي بن خلف وغيرهم من صناديد قريش، وذلك في قول الله – تعالى–: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج:٥٣][2].

وجعله – تعالى– وصفًا للكفار الذين غلظت وصلبت قلوبهم عن الانتفاع والتأثر بآيات القرآن في مقابل المؤمنين الذين تنشرح قلوبهم للحق وتبتهج وتخشع عند سماع آياته، فقال – تعالى–: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢][3].

كذلك ذكر الله – تعالى– هذا الوصف في سياق الامتنان على رسوله ﷺ وعلى الأمة المسلمة بجعل نبيها ﷺ على الرأفة والرحمة ورقة القلب وشفقته، ولم يجعله قاسي القلب غير ذي رحمة ولا شفقة، فقال – تعالى–: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٩][4].

وقد جاء في السنة ما يدل على هذا الوصف، وذلك في وصف أهل النار، كما في الصحيحين عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ. أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ**

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٨/٢٣)، والكشاف، للزمخشري (٤٧٧/٤).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (١٢٤/٤).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٩٣/٧).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٣٤١/٧).

عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ"[١]. فالعتل قاسي القلب، الشديد الجافي، الغليظ على الناس[٢]، فهي صفة تدل على قسوة القلب وشدته، ومثله الجموع المنوع الذي يرى مشاهد أهل الحاجة والفاقة ولا يرق لها قلبه وهو المراد بالجواظ، ومثله المتكبر المحتقر للآخرين، فقسوة القلب من أسبابه.

٢- زيغ القلب:

الزيغ: الميل عن الحق والانحراف عنه، يقال: زاغ عن الصواب، إذا مال عنه وانحرف[٣]، وهو درجات متفاوتة بحسب ما قام بالقلب من دواعي الزيغ والعياذ بالله.

والزيغ صورة من صور مرض القلب؛ لأنه خروج به عن الصحة والاعتدال إلى المرض والسقم، فمنه ما يمرض القلب، فلا يصل بصاحبه إلى حدِّ الكفر، ومنه ما يصل به إلى الموت بكفر صاحبه، كإطلاق القرآن له على المنافقين، وشمول آية آل عمرآن على جميع درجاته.

وقد ورد في القرآن إطلاقه على أصحاب الهوى ودعاة الضلالة الذين يتركون الصريح الواضح من كتاب الله - تعالى- ويطلبون المشتبه الملتبس بغيره؛ طلبًا لتقوية باطلهم والتلبيس على العوام والجهال بصرفهم عن الحق إلى الباطل، كما قال - تعالى-: ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ** ﴾ [آل عمران: من الآية ٧][٤].

وكذلك ورد في بيان الله - تعالى- لمنته على نبيه وصحابتة الكرام ﷺ في غزوة

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: الكبر، رقم [٦٠٧١]، وصحيح مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم [٢٨٥٣].
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١٨٠/٣).
(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (٣٨٧).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٢).

تبوك، حيث رزقهم الإنابة إلى أمره – تعالى– وأمر رسوله من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، بالذي نالهم من المشقة والشدّة، ثم رزقهم – تعالى– الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم، فأدركهم الله – تعالى– برأفته ورحمته جزاء ما أبلوا مع رسوله وصبروا عليه من البأساء والضراء، فقال – تعالى–: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة:١١٧][1].

وورد في القرآن إطلاقه في حق اليهود حين تركوا توجيهات الله – تعالى– لهم، وتركوا سَنَنَ نبيهم موسى عليه السلام وتنكبوا صراطه المستقيم، فجازاهم الله بجنس عملهم فأمال قلوبهم عن الهدى وصرفها عنه، فقال – تعالى–: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف:٥][2].

ومثله في المعنى استخدام لفظ الصرف في حق المنافقين في سورة التوبة، قال – تعالى–: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة:١٢٧]، وهو وصف في القلب مخرج له عن صحته وعافيته، وإن كان إطلاقه في الآية على المنافقين، فعاقبهم الله – تعالى– بصرفهم عن الهداية جزاء انصرافهم هم عن طريقها ورسولها[3].

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٣٩/١٤).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٠٩/٨).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٩٩/٨).

٣- عمى القلب:

العمى: لفظ يطلق ويراد به في الحس ذهاب بصر العين وانطفاء نورها، ويراد به معنى ذهاب بصيرة القلب وانطفاء نور الهداية منه[(١)].

وكلا المعنيين ورد بهما القرآن الكريم، وعمى القلب هو المراد هنا؛ لأنه الحالة العارضة بالقلب التي تخرجه عن صحته وعافيته.

وقد ورد هذا الوصف في إنكار الله – تعالى– على من ضرب في الأرض ورأى سنن الله – تعالى– ومثلاته في الأمم المكذبة العاصية، وكيف أن الله – تعالى– عاجلهم بالعقوبة فلم تغن عنهم قوتهم، ولم يكن لهم قريب ينفعهم ولا حميم ينصرهم، فلم ينتفع ذلك المبصر لذلك مع رؤيته لأشخاصها، دلالة على أن العبرة ببصيرة القلب لا ببصر العين؛ لأن العمى الحقيقي عمى القلب لا عمى العين، فقال – تعالى–: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾** ﴾[الحج:٤٦][(٢)].

٤- غل القلب:

الغل: العداوة والضغينة في القلب[(٣)]، ولها وجهان اثنان في الشرع، وجه محمود ووجه مذموم، فأما المحمود فهي ضغينة القلب وعداوته لأهل الكفر عمومًا، ولأهل العصيان من أهل الملة بقدر معاصيهم.

وأما المذموم منها شرعًا فهي الضغينة لأهل الإيمان؛ ولذا فإنها لم ترد في القرآن مطلقة بل وردت إما في سياق يدل على نفيها عن أهل الإيمان كما في آية الأعراف

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن (٥٨٨).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٦٥٨/١٨).
(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن (٦١٠)، وبصائر ذي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي (١٤٤/٤).

والحجر، وإما مقيدة النفي عن أهل الإيمان كما في سورة الحشر، وهي المرادة هنا في كونها من مرض القلب المخرج له عن صحته واعتداله.

قال – تعالى– في سياق نعيم أهل الجنة وما أعدَّ الله لهم فيها: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ [الأعراف: من الآية ٤٣]، وقال – تعالى–: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر:٤٧]، فأخبر – تعالى– عن منته على أهل الجنة بإزالة ما علق بقلوبهم تجاه بعضهم من بغضاء وعداوة وإحن في الدنيا؛ لأن الجنة دار نعيم لا كدر فيه[(١)].

وورد ذكر هذا الوصف في دعاء أهل الإيمان بأن يصفي الله قلوبهم تجاه بعضهم، فقال – تعالى–: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر:١٠].

٥– الختم والطبع على القلب:

الطبع: جعل الشيء على صورة ما[(٢)]، وهو في كلام المفسرين مرادف للختم، وكلاهما وصف أطلق على قلوب الكافرين، إلا أن بينهما عموم وخصوص، فالطبع أعم من الختم؛ إذ كل طبع ختم وليس كل ختم طبع، فالختم أول الأمر والطبع أوله وآخره، فالطبع يلزم منه الاستمرار على ذلك؛ لأنه مأخوذ من الطبيعة وهي السجية سواء كانت جبلية أو مكتسبة، بخلاف الختم فلا يلزم منه الاستمرار على ذلك حتى يكون سجية دائمة[(٣)]، كما ذكر الله – تعالى– في وصف الكفار في أول سورة البقرة،

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٣٨/١٢).
(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن (٥١٥)، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤٩٤/٣)، ومقاييس اللغة مادة (طبع) (٤٣٨/٣).
(٣) انظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٩٢).

قال - تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: الآية (٦)، وجزء من الآية (٧)]، فالتعريف في أول الآية بالاسم الموصول (الذين) مستفاد منه جنس الكفار المستغرق لأصنافهم، سواء منهم من آمن بعد ذلك أو لا، فيكون عاما خص به من علمنا يقينًا بأنه مات على الكفر، أو عاما مراد به الخصوص، ملاحظ فيه من تبين حاله بعد نـــزول الآية بالموت على الكفر والعياذ بالله؛ وذلك لأن الله - تعالى- حكم عليهم في الآية مع ذكر الختم بعدم الإيمان(١).

والختم والطبع وصفان للقلب أخرجاه عن أصل خلقته من الصحة والعافية، وقد ذكرته هنا مع كونه وصفًا أطلق في القرآن في حق الكافرين اعتبارًا لأول الحال في حقهم.

وقد ورد بهما القرآن للدلالة على أن من أمعن في الباطل وتناهى فيه حتى لا يكون لقلبه نوع التفات للحق فإن الله - تعالى- يجازيه على إعراضه بأن يختم على قلبه بالضلال، ويطبع عليه حتى يكون سجية له، فلا ينتفع بحق سمعه ولا برشد أبصره، قال - تعالى- في حق الكافرين: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة:٧]، وقال - تعالى- في حق المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ [المنافقون:٣](٢).

ثانيًا: المقابلات:

المراد بها: الألفاظ القرآنية الدالة على صحة القلب وعافيته، وهي كثيرة في القرآن، ومنها:

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٤٨/١)، وتفسير القرطبي (١٨٤/١).

(٢) ومن الآيات الواردة في ذلك: سورة النساء [١٥٥]، وسورة الأعراف [١٠١]، وسورة النحل [١٠٨]، وسورة الروم [٥٩]، وسورة غافر [٣٥]، وسورة محمد [١٦].

١- طمأنينة القلب وسكونه وخشوعه:

الطمأنينة: السكون بعد الانـــزعاج والحركة، ويكون في الجوارح بالتزامها حالة السكون عن الحركة، كما في إرشاد النبي ﷺ المسيء صلاته: "**ثم اركع حتى تطمئن راكعًا**"(١)، وفي القلب بسكونه إلى تصديق وعد الله - تعالى-، وميله إلى محاب الله ومراضيه، وعدم انـــزعاجه عنها بالميل أو الشك أو التكذيب، كما قال - تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر٢٧- ٣٠](٢).

في سورة البقرة ذكر الله - تعالى- قصة إبراهيم عليه السلام حين طلب من الله - تعالى- أن يريه كيف يحيي الموتى، ولم يكن عن شك منه عليه السلام، فهو إمام الحنفاء، ولكن أراد أن يترقى من درجة في اليقين إلى درجة أعلى منها، فيبلغ أعلى درجاته وهي مرتبة حق اليقين، قال - تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: من الآية ٢٦٠](٣)(٤).

وقد أخبر الله - تعالى- أنه أنـــزل السكينة في قلوب أهل الإيمان، وهي الطمأنينة للإيمان بالله ورسوله ﷺ وما افترضه الله - تعالى- عليهم، قال - تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: من الآية ٤]، وهو وصف للقلب الصحيح الحي؛ ولذا فإن الله - تعالى- أخبر بأن هذه السكينة والطمأنينة هي التي تحملهم على

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم [٧٥٧]، وصحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم [٣٩٧]، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٢٢/٢٤)، والمحرر الوجيز (٤٨١/٥)، وتفسير ابن كثير (٤٠٠/٨).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٩٨/٣)، وتفسير ابن كثير (٦٩٨/١).

(٤) انظر للآيات الدالة على وصف طمأنينة القلب: سورة آل عمرآن [١٢٦]، وسورة المائدة [١١٣]، وسورة الأنفال [١٠]، وسورة الرعد [٢٨]، وسورة النحل [١٠٦].

التصديق والعمل بما يتجدد من فرائض الدين، فيزدادوا بذلك إيمانًا، قال – تعالى–: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: من الآية ٤][(١)(٢)].

ومثلهما في المعنى الخشوع، فأصله في القلب كما دل عليه القرآن، إلا أنه أخص بالظاهر، فإذا كان في القلب فلابد أن يظهر على الجوارح، يقال: خشعت جوارحه، أي: سكنت عن الحركة، قال – تعالى–: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: من الآية ١٦]، فجعله الله – تعالى– وصفًا للقلب، دالا على خضوع قلوبهم ولينها لله – تعالى– ولما أنـــزله– تبارك وتعالى– على نبيه ﷺ، وهو وصف للقلب دال على كماله وعافيته[(٣)].

٢– وجل القلب وإخباته:

الوَجَل: بفتح الواو والجيم، رجفان القلب وخوفه لرؤية أو ذكر من يخافه[(٤)]، وهو وصف للقلب يمدح به إذا كان محركه الوجل من الله – تعالى–، بينما يكون مذمومًا إذا تحرك بذلك لغير الله – تعالى– ما لم يكن خوف الطبيعة والجبلة، كما قال– تعالى– عن إبراهيم عليه السلام أنه قال للملائكة حين امتنعوا عن أكل طعامه وقد جاؤوه بإهلاك قوم لوط، فناله ما ينال بني البشر: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [الحجر: ٥٢– ٥٣][(٥)].

وقد أطلق في القرآن على أهل الإيمان، قال – تعالى–: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: من الآية ٢]، فأخبر – تعالى– أن من أخص صفات

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣/٢٢).
(٢) انظر: سورة الفتح [١٨].
(٣) انظر: المحرر الوجيز (٢٦٤/٥).
(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١٦٥/٥)، ومقاييس اللغة مادة (وجل) (٨٥٥).
(٥) انظر: تفسير القرطبي (٣٥/١٠).

أهل الإيمان التي تحركهم لالتزام أوامر الله – تعالى– وترك مناهيه خوف قلوبهم من سطوة الله – تعالى– وأليم عقابه لمن خالف أمره[1].

وهو جانب من محركي أهل الإيمان لالتزام طاعة الله – تعالى–، والمحرك الثاني هو محبة الله – تعالى– والطمع في فضله، وكلاهما تضمنته آية الزمر، وهي قول الله – تعالى–: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣]، فأخبر – تعالى– عن جمع أهل الإيمان بين الخوف والرجاء، الخوف من الله – تعالى– وتعظيمه بما تقشعر به أبدانهم حين تطرق أسماعهم آيات القرآن بالحديث عن الله – تعالى– أسماءً وصفاتًا وأفعالًا، ثم رجاؤهم في الله – تعالى– وفضله الملين لقلوبهم وجلودهم لالتزام أوامر الله – تعالى– والعمل بطاعته، وكلاهما عبادة قلبية، وهما وصفان دالان على صلاح قلب المؤمن وعافيته[2]، ومثلها: قول الله – تعالى– في سورة الذاريات: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠][3].

وكذلك جعل وصفًا للمخبتين في سورة الحج، قال – تعالى–: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الحج: جزء من الآية:٣٤، وجزء من الآية ٣٥][4]، فالخبت: أصله المطمئن من الأرض، ثم استعمل في الإنسان بمعنى اللين والتواضع[5]، وهو من أوصاف القلب المؤمن الصالح، فصلاح قلب المؤمن وخشوعه

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٨٥/١٣).
(٢) انظر: السابق (٢٨٠/١٢)، وتفسير ابن كثير (٩٤/٧).
(٣) انظر: المصدر السابق (٤٤٠/٢٢).
(٤) انظر: سورة هود [٢٣].
(٥) انظر: مقاييس اللغة مادة (خبت) (٢٣٨/٢)، المفردات في غريب القرآن مادة (خبت) (٢٧٢/١).

وتواضعه يحمله على جملة من الصفات من أخصها وأولها الخوف من الله – تعالى– لما تيقنه من معاني أسمائه وصفاته[١].

٣– سلامة القلب:

السلامة صفة دالة على بقاء الشيء على أصله من الصحة والعافية، وقد وردت هذه الصفة للقلب في القرآن في دعاء إبراهيم عليه السلام ووصفه لأهل النجاة يوم القيامة، قال عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٧ – ٨٩]، فخص القلب بالسلامة لكونه المحرك للجوارح، الذي بسلامته يسلم سائر البدن، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه الذي سبق[٢]، وسلامته إما من الشرك والشك مراعاة لسباق الآيات ومضمون القصة في دعوة إبراهيم لقومه، وقد كانوا على الشرك بالله – تعالى–، أو منهما ومن سائر الذنوب والمعاصي مراعاة لإطلاق اللفظ، فمن سلم من كل ذلك حصل تمام السلامة لقلبه، وبالتالي حصَّل تمام النجاة يوم القيامة، ومن انتقص من ذلك نقص من سلامة قلبه بقدر ما أصاب من الذنوب والمعاصي، ثم فقد يوم القيامة من النجاة بقدر ذلك[٣]، كما قال – تعالى–: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨٢].

وهو وصفٌ وصف الله – تعالى– به إبراهيم عليه السلام، في قول الله – تعالى–: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات:٨٤]، فزكاه الله – تعالى– بسلامة قلبه من آفات القلوب وأمراضها، من الشرك وغيره لإطلاق اللفظ[٤].

(١) انظر: المحرر الوجيز (١٢٢/٤).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١٤/١٣)، وتفسير ابن كثير (١٤٩/٦).
(٤) انظر: تفسير الكشاف (٤٨/٤)، والمحرر الوجيز (٤٧٨/٤).

٤- إنابة القلب:

الإنابة: مأخوذة من النوب، وهو الرجوع مرة بعد مرة[١]، والإنابة: الرجوع إلى الله - تعالى- بالتوبة والتزام أوامره واجتناب نواهيه[٢].

وقد استعمل في القرآن وصفًا للقلب، وصف به قلوب أهل النجاة من النار يوم القيامة، قال - تعالى-: ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق:٣٣]، فوصف - تعالى- قلوب أهل الجنة بالإنابة؛ لأن القلب حثَّ عليها، وورد على وزن (فعيل)؛ ليكون أدل على الخضوع والاستكانة لرب العزة والجلال - سبحانه-، فجعل الإنابة وصفًا ملازمًا للقلب، وصور في الآية بصورة المقبل به معه يوم القيامة، طمعًا في النجاة في يوم لن ينجو فيه إلا من سلم قلبه، كما قال - تعالى-: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩][٣]، وهو وصف دال على سلامة القلب وعافيته.

* * *

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن مادة (نوب) (٨٢٧).
(٢) انظر: لسان العرب مادة (نوب) (٧٧٥/١)، وتفسير الطبري (٣٦٦/٢٢).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢١/١٧)، والمحرر الوجيز (٣٢٠/٢٦).

المبحث الثالث
سياقات مرض القلب في القرآن

تكرر مصطلح مرض القلب في القرآن ثلاث عشر مرة، في عشر سور منه، جلها من السور المدنية.

وفي هذا المبحث سياق كل آية على حدة، على ترتيب المصحف، لتتضح صورة مرض القلب في القرآن.

أولاً: سورة البقرة:

سورة البقرة سورة مدنية باتفاق(١)، وقد تناولت في أولها تصنيف الناس في قضية قبول القرآن والاستجابة للرسالة المحمدية إلى ثلاثة أصناف:

١- أهل القبول والإذعان والاستجابة، وهم المؤمنون المتقون، وقد ورد في وصفهم الأربع الآيات الأول من السورة [٢-٥].

٢- أهل المجاهرة بالكفر والعناد وعدم الاستجابة، وقد ورد فيهم آيتان بعد السابقة [٦-٧].

٣- أهل النفاق المظهرين للإيمان المبطنين للكفر والتكذيب [٨-٢٠].

وقد ورد في سياق وصف المنافقين مصطلح (مرض القلب)، قال - تعالى-: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠]، والمراد به: مرض النفاق والشك الذي امتلأت به قلوبهم والعياذ بالله.

وقد جاءت الآية بنوع من نوعي الكلام وهو الإخبار، في سياق من الآيات أفصحت بفضح بواطن المنافقين وما أغلقت عليه من الكفر والتكذيب والشك، من

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨١/١)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي (٤٦/١).

المتكلم بالقرآن العالم بخفايا النفوس وما تضمره القلوب، وهو الله – تعالى–، لتسجل للمؤمنين بأن المنافقين إنما يصانعونهم في الظاهر فقط، ولتوقف المنافقين على أن حقيقة حالهم وإن خفيت على أهل الإيمان إلا أنها لا تخفى على الله – تعالى– عالم السر وأخفى.

فسجلت عليهم حقيقة حالهم، وخبث قصدهم، بمخادعة الله والمؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر والشك؛ سوء ظن بالله – تعالى– وجهل به – سبحانه–. ثم تخبر الآيات صراحة عن السبب الحامل لهم على النفاق والعياذ بالله، وهو مرض القلب، وتخبر عن استمرار هذه العلة معهم بسبب استمرار بواعثها، وهي ما يجدده الله – تعالى– لنبيه ولأوليائه ولدينه من التمكين والنصر وزيادة الخير الذي تغص به حلوق المنافقين على قول من قال بأن قوله – تعالى–: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: من الآية ١٠] من باب الإخبار، وهو الذي عليه جل المفسرين[(١)]، أو الدعاء عليهم بذلك على قول من قال بأنه من باب الإنشاء[(٢)]، جزاء من جنس عملهم، ولا يظلم ربك أحدا، نظير إعراضهم عن هدايات الله – تعالى– التي بلغتهم ولم ينتفعوا بها، كما قال – تعالى– في حق المؤمنين، لما آمنوا بالله – تعالى– وصدقوا رسله، وأذعنوا لما جاء عنه فاهتدوا بكل ذلك: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: من الآية ١٧]، وكما قال – تعالى– في حق الكافرين لما أعرضوا عن هدايات الله – تعالى–، وكفروا بذلك ولم ينقادوا له، فعاقبهم – تعالى– بأن ختم على قلوبهم وطبع عليها، جزاء وفاقًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ

(١) انظر: الكشاف (٦٠/١)، والدر المصون، للسمين الحلبي (١٢٩/١)، والمحرر الوجيز (٩٢/١)، وفتح القدير، للشوكاني (٤٩/١).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (٩٢/١)، وفتح القدير، للشوكاني (٤٩/١).

﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: ٦ - ٧][1].

والمتأمل في سياق الآيات الواردة بعد التسجيل عليهم بمرض قلوبهم بالنفاق يلحظ بجلاء أنها جاءت كالآثار المترتبة على مرض قلوبهم، من السعي بالفساد في الأرض، وكذبهم بقصر الصلاح في أنفسهم، أو جهلهم باعتقاد الصلاح في عملهم مع ظهور فساده، واستهجانهم واحتقارهم لأهل الإيمان والسخرية بهم، واعتقادهم أن الإيمان بالله ورسوله وشرائعه نوع من السفه.

فالآيات الواردة في المنافقين تأتي على ترتيب بديع، فتقدم المقدمات وترتب النتائج عليها، ابتداء بنسف دعوى المنافقين بالإيمان وإبطالها، ثم إعطائهم الحكم الصحيح بالكفر وعدم الإيمان، ثم توصيف حالتهم، وذكر سبب نفاقهم، وهو مرض قلوبهم، ثم ذكر جملة من الآثار المترتبة على مرض قلوبهم بالنفاق، ومنها وصفهم أهل الإيمان بالسفه، ثم تحقق السفه في جانبهم بخسارة صفقتهم وعدم ربحهم في تجارتهم؛ إذ استبدلوا الهداية بالغواية والنفاق، ثم الختم بضرب المثل المناسب لحالهم.

واستعمال وصف (مرض القلب) في حق المنافقين يشعر باقتصاره على صنف من أصناف المنافقين، مناسبةً لحقيقة مرض القلب، وهم من تحيَّر وتردد وشك في أمر محمد - صلى الله عليه وسلم- وما جاء به، كما قال - تعالى-: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [النساء:١٤٣]، فحيرتهم أبقتهم في تردد بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر، فلا هم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وهذا الوجه في الآية هو الذي ذكره الإمام الطبري في تفسيره ولم يذكر سواه[2].

أما الصنف الثاني من المنافقين، وهم من جحد وكذب ولم يتردد في ذلك ولم

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٧٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٢٧٩)، وزاد المسير، لابن الجوزي (١/٣٢)، وتفسير ابن كثير (١/١٧٨).

يتحير فيه، فهو إلى موت القلب أقرب، إلا أن المتأمل في أول الآيات الواردة في المنافقين، وهي قول الله – تعالى–: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة:٨]، ووروودها في سياق الإخبار عن صنف من الناس يظهرون ما لا يبطنون، يقولون آمنا، وحقيقة الحال أنهم لا يؤمنون، شامل لكلا صنفي المنافقين، وكذلك ما تقتضيه ثلاثية القسمة في أصناف الناس من اشتمالها على صنفي المنافقين، ويقوي ذلك ويؤكده بدخول هذا الصنف الثاني في المراد بمرضى القلوب من المنافقين في الآيات باقي الصفات التي اشتملتها الآيات، والتي تدل دلالة واضحة على اشتمالها لصنف المكذبين الجاحدين من المنافقين.

والقول باشتمال وصف مرض القلب لصنفي المنافقين: المكذبين الجاحدين، والشاكين المتحيرين، قول ابن عطية وغيره من أئمة التفسير(١).

ثانيًا: سورة المائدة:

سورة مدنية بإجماع(٢).

وقد ورد ذكر (مرض القلب) فيها في سياق الآيات التي نهى الله – تعالى– فيها المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، فقال – تعالى–: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة:٥١]، فجاءت الآية بأسلوب الإنشاء، ناهية المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى.

وقدم للنهي بمقدمات بليغة: فقدم بنداء البعيد في مخاطبة القريب (القارئ والمستمع)، ثم ثنى بوصف الإيمان الذي تشرئب له الأعناق وتتطلع له النفوس؛ شحذاً

(١) انظر: المحرر الوجيز (٩٢/١)، وتفسير القرطبي (١٩٧/١).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (١٤٣/٢)، وتفسير ابن كثير (٥/٢)، والدر المنثور (٥/٣).

للهمم لالتزام مضمون النهي، وتحريضًا لها للعمل بموجبه، ودلالة على أن البراءة من اليهود والنصارى من صفات المؤمنين.

ثم انتقل من مخاطبة المؤمنين بإسلوب الإنشاء إلى أسلوب الإخبار عن اليهود والنصارى بتظاهرهم على الكفر واستوائهم فيه، وتوحدهم في خندق واحد في محاربة المؤمنين، فكان كالمحرض على النهي المبرر له.

ثم رجع السياق بالالتفات عن الخبر عن الغائب إلى خطاب المؤمنين بأن من يظاهر اليهود والنصارى من أهل الإسلام بعد أن كشف الله – تعالى– حقيقتهم فحكمه عند الله – تعالى– أنه منهم؛ لأنه وإن ادعى غير ذلك، إلا أن واقع الحال وشاهده وقوفه معهم في خندقهم، فكان حكم العدل منه – سبحانه– بما حكم به ذلك المظاهر على نفسه، فأتت الآية بتوصيف حاله دلالة على الحكم عليه، فهو من التزم ذلك فحكم على نفسه(١).

ثم يتواصل ختام الآية بأسلوب الخبر لكن عن الله – تعالى–، مؤكدًا بـــ (إن)، للإفادة بأن من اختار طريق الضلالة فإنه محروم من الهدايه، فالله – تعالى– لا يهدي القوم الظالمين، فكان الختام دالا على سبب الحكم بظلمهم؛ إذ وضعوا الأمر في غير موضعه بوقوفهم مع الكفار ومظاهرتهم، في حين أن إسلامهم الذي دخلوا فيه يحتم عليهم البراءة من الكفار وتولي المؤمنين.

ثم تأتي الآية التي تليها مشتملة على وصف (مرض القلب) لأولئك الذين ظاهروا اليهود والنصارى في أسلوب الخبر بتشخيص حالتهم، وذكر السبب الذي أوقعهم فيما وقعوا فيه من المظاهرة المحرمة، وهو مرض قلوبهم، قال – تعالى–: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٩٨/١٠)، وتفسير القرطبي (٢١٧/٦).

﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥٢]، فتأتي بأسلوب الخبر للمخاطب، لكن في الخطاب لشخص النبي ﷺ؛ وهو خطاب له ولأمته من أهل الإيمان؛ لأن هذا التصرف غالبًا ما يقع من أهل النفاق، وهم لا يستعلنون بكفرهم، بل يسرون بذلك ويتظاهرون بالإيمان.

فالمراد بمرض القلب في الآية: فساد قلوبهم بالشك في نصر الله – تعالى– لأهل الإيمان، وإعلائه – تعالى– لكلمته ولدينه على سائر الأديان، وهو دليل فساد عقيدتهم في حق الله – تعالى–، وجهلهم بمقتضيات أسمائه الحسنى وصفاته العلى – سبحانه–[1].

وهذا المرض الذي احتوته قلوبهم حملهم على مظاهرة من يرجون نفعه يوم تدور الدوائر في ظنهم، وتعبير القرآن بلفظ المسارعة، ومجيئه بصيغة المضارع (يسارعون)،كلاهما يشي بعدم توانيهم في كل ما من شأنه حفظ نفوسهم ومخصصاتهم حسب ظنونهم القاصرة، حتى وإن أدى بهم ذلك إلى الخروج من الدين والعياذ بالله، فظهر أن بقاءهم على الإسلام لا من أجل اعتقادهم أنه الدين الحق، وإلا لهانت في جانب الثبات عليه التضحيات، وإنما من أجل تحصيل مصالحهم، والسعي في إطفاء نور الله بقدر جهدهم وجدهم، مع ما يحمله اللفظ من تجدد ذلك منهم وحدوثه كل ما عنت لهم أسبابه أو لاحت لهم أماراته.

ثم تختم الآية بأسلوب الخبر بوعد الله – تعالى– بكلمة (عسى) التي تفيد تحقق الوقوع في حقه – تعالى–، بأنه – سبحانه– سيرد كيد المنافقين في نحورهم ويخيب ظنونهم، وذلك بما يجريه الله – تعالى– على أيدي المؤمنين من وقائع النصر لأوليائه والتمكين لدينه – سبحانه–، أو بما يمتن الله – تعالى– به على دينه وأوليائه مما لا يكونون سببًا فيه، فتقع حينئذ حسرتهم بنصر الله – تعالى– لدينه وأوليائه، وندمهم

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٤٠٤)، وتفسير الكشاف (١/٦٤٣).

على ما أظهروه من الأقوال الكاشفة خبث طويتهم الدالة على مرض قلوبهم، وقد أظهر الله – تعالى– من الواقع ما أكذبهم في ظنهم وأوضح نفاقهم[١].

ثم تأتي الآية التي تليها في أسلوب الخبر، وبالفعل المضارع (يقول)، مقابلة للمضارع السابق في (يسارعون)، فتقابل الصيغة الصيغة، والدلالة الدلالة، وذلك باستمرار تعجب أهل الإيمان في المستقبل – إذا وقع وعد الله – تعالى– من جرأة المنافقين على الحلف بالأيمان الكاذبة بأنهم مؤمنين، حين يكشف الله – تعالى– لهم كذب المنافقين وسوء ظنهم ونفاقهم، وهو إخبار عن مستقبل سيقع، بشارة منه – تعالى– بنصر المؤمنين، وتوبيخًا وتبكيتًا للمنافقين، قال – تعالى–: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المائدة:٥٣]، فـــأخبر – تعالى– عن حبوط أعمالهم بصيغة الماضي (حبطت)؛ لدلالة على تحقق وقوعه؛ لأن أعمالهم لم تقع على ما يوافق الشرع؛ إيمانًا بالله – تعالى– وتصديقًا بموعوده، فترتب على كل ذلك خسران صفقتهم، ونفوق تجارتهم، بخسران الدنيا والآخرة[٢].

ثالثًا: سورة الأنفال:

سورة الأنفال مدنية باتفاق أهل التفسير[٣].

وقد دارت آياتها حول موضوع غزوة بدر وغنائمها، وهي أول معركة دارت بين النبي ﷺ ومعسكر الإيمان من جهة وبين الكفار من جهة أخرى، وتعد من المعارك الفاصلة في تاريخ البشرية بين الأنبياء وأعدائهم، وقعت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكان الحامل عليها خروج رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه لطلب عير

(١) انظر: المحرر الوجيز (٢/٢٠٥).
(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/٤٠٩)، وتفسير القرطبي (٦/٢١٩).
(٣) انظر: المحرر الوجيز (٢/٤٩٢)، والدر المنثور (٤/٣).

قريش، لعل الله – تعالى– أن يعوض مهاجري المؤمنين شيئًا مما حرمهم منه صناديد قريش من أموالهم، فأرادوا شيئًا وأراد الله – تعالى– لهم وللأمة من بعدهم خيرًا مما أرادوا. فعندما تسامع صناديد قريش بالخبر هبوا لاستنقاذ عيرهم وتجارتهم، فجمع الله – تعالى– بين رسوله ﷺ وبينهم على غير موعد، وجعل – تعالى– في ذلك نصر الإسلام وأهله، قال – تعالى–: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾ [الأنفال: ٥ – ٦]، فوصفت الآيات حقيقة حال المؤمنين، بإظهار ميل نفوس بعضهم ﷺ؛ إذ رغبوا في الغنيمة والعير على لقاء العدو والحرب؛ لأنهم لم يتأهبوا لذلك، ثم أخبرت الآيات عن سبق وعد الله – تعالى– وبشارته لرسوله ﷺ والمؤمنين بالنصر والظفر، فقال– تعالى–: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ ﴾ [الأنفال: ٧]، ثم أبان – سبحانه– السبب الذي من أجله دبر لأهل الإسلام ما فيه نفع الأمة على مر عصورها، وذلك بإظهار دينه الحق، ورفعه – تعالى– كلمة الإسلام، وغلبته على كل الأديان، فقال – تعالى–: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾ [الأنفال: ٨][1].

في جو هذه السورة، وسياق ملابساتها وأحداثها يأتي ذكر (مرض القلب) فيها، وذلك في قول الله – تعالى–: ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٤٩ ﴾[الأنفال:٤٩]، فتأتي الآية في ثوب الخبر، بالإخبار عن طائفة لا تعرف إلا الماديات، ولا تقيس الأمور إلا بالموازين

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٦/٤).

الأرضيه، موازين العدد والعدة، جاهلة بأن الإسلام دين الحق، فرضه خالق السموات والأرض الذي بيده مقاليد الأمور، وهو الذي يجري كل شيء حسب السنن الذي سنه، ويبدل في كل ذلك متى شاء – سبحانه–، ولن يسلم دينه ورسوله وأولياءه.

والله – تعالى– لما أمر المؤمنين بإعداد العدة في مواجهة أعداء الإسلام قيد الإعداد بالمستطاع من ذلك، قال – تعالى–: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]، فأرشد – تعالى– لضرورة أخذ الأمة بالسبب في الإعداد؛ لتربية الأمة على ضرورة الأخذ بالسبب مع عبادة التوكل على الله – تعالى–.

ولفت – تعالى– في موطن آخر انتباه الأمة إلى حقيقة تغيب عن الماديين، وهي أن وراء الماديات قدرة إلهية لا يعجزها شيء، تثبت بأن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة وإنما هو بيد الله – تعالى– مالك الملك[1]، كما قال – تعالى–: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٥ – ١٢٦]، فأخبر – تعالى– بأن تأييده للمؤمنين بالملائكة إنما هو لتطمين قلوبهم وإلا فالنصر منه – سبحانه–.

فتخبر آية الأنفال عن قول المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فإما أن يكون وصف مرض القلب من تمام وصف المنافقين، فيحمل عليه قول من قال من السلف بأن المراد بهم قوم من المنافقين بالمدينة قالوا ذلك لما بلغهم؛ لأن بدرًا لم يحضرها منافق[2]، ويشمل أيضًا من داخل الإسلام قلبه من أهل مكة ثم أكرهوا على الخروج

(١) انظر: تفسير الطبري (١٩٠/٧).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (٥٣٩/٢).

مع المشركين إلى بدر فنافقوا.

وإما أن يراد بمرضى القلوب في الآية غير منافقي المدينة، فيحمل حينئذ عليهم قول من قال من أهل التفسير بأن المراد بهم قوم ممن دخل الإسلام قلوبهم بمكة، ثم أكرهوا على الخروج مع المشركين إلى بدر، فلما أشرفوا على المسلمين في بدر ورأوا قلتهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون؛ نتيجة عدم تحقق الإيمان في قلوبهم، وجهلهم بالله – تعالى–، وسوء ظنهم به[1]، وأيًّا ما كان فالآية تخبر بوصف يعم الجميع.

ثم تختم الآية بأسلوب الشرط (ومن يتوكل على الله)، إرشادًا للمؤمنين وتنبيهًا لهم من جانب، وكشفًا من جانب آخر لحقيقة المنافقين ومرضى القلوب.

فأما إرشاد المؤمنين: فإلى ضرورة تعلق قلوبهم بالله – تعالى–، واعتمادها عليه، وألا تغتر بقوتها أو عدتها وعتادها حال توفر ذلك، وألا تشعر بالضعف النفسي حين تضعف عدتها ويقل عددها في مقابل تفوق عدد عدوها وعدته؛ لأن معها حين تطيع الله – تعالى– وتسير في رضاه قوة من لا يغلب، فيأتي جزاء الشرط بأبلغ عبارة، فلم يكن ختام الآية كما يتبادر للذهن: ومن يتوكل على الله فإن الله كافيه أو ناصره، إنما تضمن ثلاثة من أسماء الله – تعالى– دالة على كمال قدرته وقوته (الله، العزيز، الحكيم)؛ ليذهب عقل المؤمن كل مذهب في الاطمئنان لوعد الله – تعالى– بالنصر، وكفايته– تعالى– لمن توكل عليه، فهو الله الذي تفرد بالربوبية والألوهية، فذل له – تعالى– كل شيء في السماء والأرض، العزيز الذي لا يغالب – سبحانه–، والحكيم الذي يضع الأمور في نصابها، فينصر أولياءه لمحبته لهم، ويذل أعداءه لسخطه عليهم.

وأما كشف حقيقة المنافقين ومرضى القلوب: فلأن الآية أظهرت سوء اعتقاد المنافقين في الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، وهو الشك في صحة نبوته ﷺ؛ إذ لو صح

(١) انظر: المصدر السابق (١٢/١٣)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٧١٧/٥).

اعتقادهم بنبوته ودعوته لأيقنوا بنصر الله له.

وجهل من جهل منهم قدرة الله – تعالى–، وسوء ظنهم به – تعالى– ألا ينصر نبيه ودينه، وهو الأمس بظاهر الآية.

رابعًا: سورة التوبة:

سورة التوبة سورة مدنية بإجماع[(١)].

وهي أكثر سور القرآن فضحًا للمنافقين؛ ولذا ورد عن الصحابة ﷺ تسميتها بـــ: الفاضحة والحافرة والمبعثرة، وكلها تتعلق بما اهتمت به السورة من فضح المنافقين، حتى قال ابن عباس – رضي الله عنهما–: لا زال ينـــزل ومنهم ومنهم، حتى ظننا أن لا يبقى منهم أحد[(٢)].

وقد ورد ذكر (مرض القلب) في آخرها، في سياق الآيات التي اهتمت بكشف حقيقة القلوب عند نـــزول آيات الله – تعالى– وبيناته على رسوله ﷺ، ومدى تأثرها به.

وقد تولى القرآن ذلك؛ لأن الحال بين يدي رسول الله ﷺ حين ينـــزل القرآن كان يجمع بين من صح إيمانه وصدق إسلامه، وبين من نافق، فأظهر الإيمان وأبطن الكفر والتكذيب والشك؛ لعيشهم بين المسلمين عملًا بحكم الظاهر، فكان لا بد من التنبيه على الفرق بين الفريقين من الذي يعلم السرائر والظواهر.

وقد بدأت الآيات بأسلوب الخبر عن ظاهر حال المنافقين حين ينـــزل الله – تعالى– على نبيه ﷺ سورة من القرآن، فيبادرون بالتشكيك فيها، وذلك بسؤالهم للناس ممن تجمعهم بهم قرابة، فيطمئنون لخفاء أمرهم، أو سؤال بعضهم لبعض عن موقفهم مما نـــزل، سؤالًا لا يقصد منه الاستفهام، وإنما التنقص والتشكيك الكاشف

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٠١/٤)، والدر المنثور (١١٩/٤).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (٣/٣).

لحقيقة موقفهم مما نـــزل[1].

ولذا أعرض السياق القرآني عن جواب من سؤل عن ذلك سواء كان منهم أو من غيرهم؛ لكفاية كشف السؤال عن المقصد منه مع القرآن الذي لا يتطرق الشك في أنه من عند الله – تعالى–، إلى الكشف عن السبب الذي حملهم على ذلك، فذكر حقيقة قلوب المنافقين، وما اشتملت عليه من مرض الكفر والشك، الدال على فساد الاعتقاد، وذلك بعقد المقارنة بين قلوب أهل الإيمان وقلوب أهل النفاق في قبول ما ينـــزل من سور القرآن والتصديق به، قال – تعالى–: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ – ١٢٥]، فتأتي الآية بالخبر عن استفهام المنافقين، ثم تأتي الفاء في (فأما) التي للتفريع والتقسيم، فتبدأ بالخبر عن أهل التصديق والإيمان، وتجعل لهم أمرين اثنين في مقابل أمرين للمنافقين، الأول: في حقيقة الحال وقت بلوغ السورة إليهم. والثاني: في بيان العاقبة[2].

فأما حالهم عند تنـــزل السورة وبلوغها إليهم فإنهم يزدادون بسبب ما ينـــزل عليهم من سور القرآن إيمانًا وتصديقًا؛ إن كان خبرًا فبما ازدادوا من العلم به وتصديقه، وإن كان إنشاءًا – أمرًا ونهيًا – فبما أذعنوا له والتزموا به.

وأما الثاني: فبما يحمله لفظ (يستبشرون) بصيغة المضارع من تجدد وحدوث أنواع الاستبشار وصوره لهم في الدنيا والآخرة، سواء استبشارهم بزيادة إيمانهم بسبب ما يتجدد نـــزوله من سور القرآن علمًا وعملًا، أو بالنصر والظفر الذي وعدوا به

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٧٧/١٤)، والمحرر الوجيز (٩٨/٣).
(٢) انظر: التفسير الكبير (١٧٤/١٦).

مقابل إذعانهم لأوامر الله، أو بالفوز في الآخرة وتحصيل الفلاح فيها.

وأما مرضى القلوب، والمراد بهم في الآية: أهل النفاق الذين اشتملت قلوبهم على الكفر والشك، فلهم أمران اثنان في مقابل ما للمؤمنين:

الأول: ازدياد الكفر والشك في قلوبهم بسبب ما كفروا به وشكوا فيه من سور للقرآن جديدة، فانضاف إلى ما حملته قلوبهم من ذلك قدر زائد، وهو المعبر عنه في الآية بالرجس؛ إذ الرجس يطلق على القذر والعذاب، وكلاهما حاصل للمنافقين، أما القذر والنجس فمنه حسي ومعنوي، والنفاق من المعنوي منه، وأما العذاب فكما في ختام هذه الآية وفي غيرها مما توعد الله به المنافقين، كقوله – تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء:١٤٥].

وقد ورد السياق القرآني في حقهم بما يدل على تجميعهم لذلك الضلال وتكديس بعضه على بعض (رجسًا إلى رجسهم)؛ لينالهم ما توعد الله – تعالى- به من كفر بقوله: ﴿ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنفال: من الآية ٣٧].

والثاني: بيان عاقبة حالهم ونهاية سعيهم، وهي استمرار مرض قلوبهم إلى الموت، وذلك بما حملته قلوبهم من النفاق والكفر والشك، قال – تعالى-: ﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: من الآية ١٢٥]، فإما أن يكون من باب الإخبار عن خاتمة حالهم، وإما أن يكون من باب الدعاء عليهم بذلك[1].

ثم خاطب الله – تعالى- المنافقين خطاب الموبخ لهم على قراء الجمهور (أَوَلا يَرَوْنَ)، أو خاطب أهل الإيمان خطاب المعجب لهم بحال المنافقين على قراءة حمزة (أَوَلا

(١) انظر: المحرر الوجيز (٩٨/٣).

تَرَوْنَ)[1]، بأنهم ومع ما يتكرر عليهم في كل عام مرة أو مرتين، مما يكون اختبارًا لهم، وهذا الذي يختبرون به إما أن يكون في صور متنوعة؛ مراعاة للفظ الفتنة الذي لم يقيد بصورة منها، وهو الذي يدل عليه قول جلُّ المفسرين سلفًا وخلفًا، فيكون المراد بالفتنة في الآية: مواعظ الله – تعالى– وبيناته التي يختبرهم بها في صور متنوعة، سواء من الشدائد التي تمر عليهم، أو من تأييد الله – تعالى– ونصره لنبيه ودينه، أو مما يفتضحون به، ويكون نكالاً لبعضهم.

أو يكون المراد بالفتنة في الآية نوع منها: وهو فضح الله – تعالى– للمنافقين أو لبعضهم مما يتكرر عليهم فقط، وهو المناسب للحاق الآية، فقد سجل الله – تعالى– عليهم حقيقة حالهم عندما ينـــزل تبارك و– تعالى– على نبيه ﷺ ما يفضح فيه المنافقين بسؤال بعضهم لبعض: هل حضركم من أحد عندما تناجيتم بحالكم أو بما كدتم ودبرتم؟ فقال – تعالى–: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [التوبة: من الآية ١٢٧]، وقد رجحه ابن عطية – – رحمه الله[2].

وعلى كلا القولين فالمراد من الآية الإنكار على المنافقين وتوبيخهم، أو تعجيب المؤمنين من حالهم كما سبق، إذ لم يكونوا من أصحاب الحجى فيستفيدوا من ذلك في معرفة صدق محمد ﷺ والرجوع إلى الحق والإذعان له، بل كان حالهم البقاء على النفاق، والزيادة من مرض القلب، فهم لا يتعظون بذلك ولا ينتفعون به فيتركون النفاق، قال – تعالى–: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٦] [3].

ثم أخبر – تعالى– عن عقابه لهم على نفاقهم وتماديهم فيه، وانصرافهم عن الهدى

(١) انظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (١٤١/٦).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (٩٩/٣).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٥٨١/١٤)، وتفسير الكشاف (٤٢٣/٢)، والمحرر الوجيز (٩٩/٣).

فقال - تعالى-: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: من الآية ١٢٧]، فعاقبهم- تعالى- بجنس فعالهم؛ فإنهم لما انصرفوا صرف الله قلوبهم عن الهداية، جزاءً وفاقًا كما سبق مرارًا[(١)].

خامسًا: سورة الحج:

سورة الحج من السور التي اختلفت الروايات عن السلف - رحمهم الله تعالى- في نـــزولها، هل هي مكية أو مدنية؛ ولذا ذكر كل واحد من أئمة التفسير فيها ما أداه إليه اجتهاده، فالإمام ابن كثير- رحمه الله- لم يذكر إلا أنها مكية[(٢)]، والسيوطي- رحمه الله- لم يذكر إلا أنها مدنية[(٣)]، وأما ابن عطية فرجح أن بعضها مكي وبعضها مدني، ونسبه قولًا للجمهور[(٤)]، وهو الذي يرجح والعلم عند الله؛ لتجاذب ضوابط المكي والمدني لها[(٥)].

وقد ذكر (مرض القلب) فيها في سياق الآيات التي اهتمت ببيان شدة حرص النبي ﷺ على هداية قومه وأمته، حتى إن ذلك أمنية له، وفي المقابل ما مضى من سنة الله - تعالى- في سائر الأنبياء بحرص الشيطان على تعكير تلك الأمنية منهم - عليهم السلام-، وذلك بما يلقيه في نفوس المدعوين من شبه الضلال؛ ليصدهم بها عن الهداية.

وقد ورد في كتب التفسير حول هذه الآيات كلام طويل، معتمده روايات من المأثور، إلا أن المتأمل في جميع ذلك لا بد أن يتنبه إلى ما يلي:

١- أن الروايات المأثورة في ذلك، وهي المسماة عند العلماء (بقصة الغرانيق)، وخلاصتها: أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم، وكانت قراءته على مسمع من مشركي

(١) انظر: ص (١٤).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٩/٥).
(٣) انظر: الدر المنثور (٣/٦).
(٤) انظر: المحرر الوجيز (١٠٥/٤).
(٥) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٦٩/١).

قريش، حتى بلغ قول الله – تعالى-: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٠]، ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فسجدوا بسجود النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، ظنًا منهم بأنه قد امتدح آلهتهم التي يعبدون من دون الله.

فهذا أثر لا يصح ولا يثبت سندًا؛ ولذا كر عليه علماء التحقيق بالرد وعدم القبول، قال ابن عطية – رحمه الله-: وهذا الحديث وقع في كتب التفسير ونحوها ولم يدخله البخاري ولا مسلم ولا ذكره في علمي مصنف مشهور[(١)]. ونقل الرازي – رحمه الله- في تفسيره عن الإمام ابن خزيمة محمد بن إسحاق – رحمه الله- أنه قال: هذه القصة من وضع الزنادقة، وصنف رسالة في ردها. ونقل كذلك عن الإمام البيهقي – رحمه الله- قوله: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل[(٢)]. وقال ابن كثير – رحمه الله-: ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح[(٣)(٤)].

٢-أن يُتنبه إلى أن الأخذ بظاهر القصة يلزم عليه القدح في مقام النبوة، وكذلك القدح في حفظ الله – تعالى- لكتابه كما وعد بذلك بقوله – تعالى-: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]، ويفتح الطريق لأعداء الإسلام ليقدحوا في القرآن وحفظه بقصص واهية لا تثبت؛ وعليه فلا بد من مراعاة توجيهها بما لا يلزم منه ذلك عند إدراجها في التفسير، كما فعل أئمة التفسير الكبار، حيث وجهوا ذلك:

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (١٢٩/٤).
(٢) انظر: التفسير الكبير (٢٣٧/٢٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤٤١/٥).
(٤) انظر للتوسع في روايات هذه القصة ودراستها والحكم عليها: نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، للعلامة/ محمد ناصر الدين الألباني.

بأن الشيطان ألقى في مسامع المشركين بصوت نحو صوت رسول الله ﷺ، فكان من الشيطان لا من رسول الرحمن[١]، مع أن الأولى أن ينـــزه القرآن عن مثلها، وبخاصة مع عدم ثبوتها.

وأما ذكر (مرض القلب) فيها، فبعد أن أمر الله – تعالى– نبيه ﷺ بأن يعلن في الناس بمهمته التي أنيطت به، وهي دعوتهم المتضمنة لإنذارهم من المخالفة بعد بيان مراد الله – تعالى– منهم، وورود ذلك في سياق الإنشاء، قال – تعالى–: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحج:٤٩]، جاءت بعده فاء التفريع مناسبة لحال أمة الدعوة، إذ فيهم المستجيب لدعوة محمد ﷺ، وهم الذين قيل فيهم: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحج:٥٠]، فوصفتهم الآية بالإيمان والعمل الصالح، جمعًا بين التصديق والالتزام الذين هما شطرا الإيمان، ثم وعد الله – تعالى– لهم بمغفرة الذنب بعدم المؤاخذة به وستره، وإنالة الجنة المعبر عنها في الآية بالرزق الكريم؛ لأنه لا تنغيص فيه بوجه من الوجوه.

وأما الصنف الثاني من المدعوين فقال – تعالى– فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحج:٥١]، في صورة مقابلة في مكوناتها لصورة المستجيبين، ولكنها تناقضها تمامًا، فتصديق المؤمنين والتزامهم يقابله تعنت الكافرين بتكذيبهم للدعوة وطعنهم فيها وصدهم عنها، وجزاء المؤمنين بمغفرة ذنوبهم ورزقهم الكريم يقابله الحكم على الكافرين بدخول الجحيم – والعياذ بالله – وفي ذلك تسلية لقلب النبي ﷺ[٢].

ثم تأتي الآية التي تليها في سياق الخبر، مبتدئة بواو الاستئناف، مسوقة بتسلية

(١) انظر: المحرر الوجيز (١٢٨/٤)، وتفسير ابن كثير (٤٤٣/٥).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧٨/١٢).

أخرى للنبي ﷺ، مفادها: أن سنة الله – تعالى– في نبيه محمد ﷺ ماضية على ما سبق في الأنبياء قبله – عليهم السلام–، بأنهم إذا تمنوا عكر الشيطان عليهم ذلك بما يلقيه على الكافرين من شبه الضلال، قال – تعالى–: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج: من الآية ٥٢]، فالأمنية يراد بها هنا التلاوة والقراءة، يقال: تمنى إذا قرأ، واستعماله على ذلك معروف عند العرب[(١)].

فيكون توجيه الآية عليه: أنه ما من رسول ولا نبي إذا تلا على قومه من الكافرين ما أنـــزل عليه من ربه أو حدثهم إلا ألقى الشيطان في تلاوته وحديثه على ما روى البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما–[(٢)]، وهذا الإلقاء من الشيطان يجب أن يكون على هذا الوجه في مسامع الكافرين، لا على لسان النبي الكريم، فإنهم – عليهم السلام– معصومون في مقام النبوة والتبليغ، وهذا أصل لا يجوز العدول عنه بحال، كما دل عليه النص الصحيح الصريح من الكتاب والسنة، وإلا لساغ القدح في كل ما جاء به الأنبياء – عليهم السلام–، وهو باطل.

وإما أن يكون التمني على أصله، فيما ترغب فيه النفس وتطلبه وتتطلع إليه، ويكون توجيه الآية عليه: أنه ما من نبي ولا رسول إلا ويتمنى صلاح من أرسل إليهم، إلا أن الشيطان معكر عليه أمنيته، وذلك بما يسعى به ويجتهد فيه من إلقاء الشبه المضلة على المدعوين، مما يكون سببًا لتعكير أمنية النبي الكريم ﷺ[(٣)].

ثم أخبر الله – تعالى– بمنته على أنبيائه، وحفظه لدينه، وذلك بإزالة ما يلقيه الشيطان في مسامع الكافرين، وإحكام الله – تعالى– لآياته، على التوجيه الأول، أو

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء (٢/٢٢٩)، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٤٣٣)، والمحرر الوجيز (٤/١٢٨).

(٢) ذكرهما البخاري في صحيحه في كتاب: التفسير، باب: {كما بدأنا أول خلق نعيده}.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٧/٢٩٨)، وأضواء البيان، للشنقيطي (٥/٢٨٤).

بإمضاء ما تمنوا من هداية أقوامهم فيمن سبقت له من الله السعادة، وذلك بإزالة الله – تعالى– لما يلقيه الشيطان في مسامعهم من شبه الضلال، وإحكام الله – تعالى– لآياته بعصمة من سبقت له من الله الهداية، على التوجيه الثاني، كما قال – تعالى–: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر:٤٢]، قال – تعالى–: ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: من الآية ٥٢].

ثم يتواصل السياق القرآني بعد تقرير ما سبق بذكر النتيجة المترتبة على ما يجتهد به الشيطان في صد الناس عن الهداية، فتذكر الصنفين اللذين سبق ذكرهما في مقام الاستجابة من عدمها لدعوة الرسول ﷺ، وكأنها تشير إلى السبب الذي انقسم به الناس إلى مستجيبين ومكذبين، مع ما سبق لكل منهما في علم الله – تعالى– من السعادة أو الشقاوة، قال – تعالى–: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: من الآية ٥٣]، فترد الآية بالجملة الفعلية الدالة على تجدد ذلك وحدوثه، مما يرجح التوجيه الثاني في المراد بما يلقيه الشيطان كما في الآية السابقة، وتفتتح بلام التعليل، مشيرة إلى الحكمة التي من أجلها مُكن الشيطان من ذلك، وهي إضلال الله – تعالى– لمرضى القلوب وقساتها[(١)]، والتعبير عنهم بالوصف بذلك إشارة إلى أن الله – تعالى– لم يظلمهم، وإنما استحقوا ذلك بسبب ترددهم هم وشكهم، وهم المعبر عنهم في الآية بمرضى القلوب، ومنهم المنافقون[(٢)]، وعليه فيترجح أن الآية مدنية؛ لأن النفاق لم يظهر إلا في المدينة.

أو بسبب إمعانهم في الكفر والضلال والعياذ بالله، وهم المعبر عنهم في الآية بقساة

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨٦/١٢).
(٢) انظر: تفسير الكشاف (١٦٦/٣)، وتفسير ابن كثير (٤٤٥/٥).

القلوب، ثم يختتم الحديث عنهم في الآية بالحكم عليهم بغاية البعد عن الهداية، قال – تعالى-:﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: من الآية ٥٣].

ثم ثنى الخطاب القرآني بذكر نتيجة الصنف الثاني من المستهدفين بإضلال الشيطان، وهم من سبقت له من الله – تعالى- السعادة، قال – تعالى-: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج:٥٤][1]، فهؤلاء صحت قلوبهم، فانكشف لهم أن ما يلقيه الشيطان عليهم إنما هي شبه شيطانية؛ لتصرفهم عن الحق، ولذا عبر عنهم بالوصف بـــ (أوتوا العلم)، إشارة إلى السبب الذي عصموا به بعد حفظ الله – تعالى- لهم، ومثله ما ذكره الله – تعالى- في سورة الأعراف، قال – تعالى-:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠١][2].

سادساً: سورة النور:

سورة مدنية بإجماع، حكى الإجماع على ذلك القرطبي في تفسيره[3]. ولم يستثن من آياتها شيء في النـــزول من حكم عمومها[4].

وقد ورد ذكر (مرض القلب) فيها في سياق الآيات التي سجلت على المنافقين نفاقهم، فأخبر الله – تعالى- عنهم بأنهم يظهرون ما لا يبطنون، فهم يدَّعون الإيمان بالله – تعالى- ورسوله ﷺ وحقيقة حالهم على خلاف ذلك؛ ولذا حكم عليهم – تعالى- بعدم الإيمان، قال – تعالى-:﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/٤٤٥).
(٢) انظر: تفسير الكشاف (٢/١٩١).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٥٨).
(٤) انظر: التفسير الكبير (٢٣/٣٠١).

﴿مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النور: ٤٧]، فوردت الآية في سياق الخبر، منبهة على دعواهم.

والمتأمل في الآية يلحظ أن الآية سجلت عليهم ادعاء الإيمان والطاعة، وفيه إشارة إلى أنهم استعملوا أبلغ الأوصاف الدالة على صدق إيمانهم، وهو ما يترتب عليه من الطاعة، والمراد بها جزء العمل الظاهر في مسمى الإيمان، مع أن ظاهر حالهم يكذب ذلك؛ ولذا رتب عليه السياق توليهم بصيغة المضارع الدالة على تجدد ذلك منهم (يتولى)، فحكم – تعالى– عليهم بعدم الإيمان فقال: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم يتواصل السياق القرآني بالإخبار عنهم بما يصحح الحكم عليهم بعدم الإيمان ويؤيده، وذلك بذكر صورة من صور توليهم عن الإيمان ومقتضياته، الكاشفة عن حقيقة ما في ضمائرهم من طلب الدنيا ونفع الذات لا الإيمان بالله – تعالى– ورسوله، وهي صورة التحاكم إلى رسول الله ﷺ والتقاضي بين يديه، وهو الحاكم بأمر الله المبلغ عنه – تعالى–؛ ولذا جاء التعبير في الآية بقوله – تعالى–: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: من الآية ٤٨] فجمع – تعالى– بينه وبين رسوله ﷺ لهذا المعنى، ثمَّ أفرد لفظ الحكم ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ [النور: من الآية ٤٨]، (لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) لأن المراد به الرسول ﷺ، ثم ختمت الآية بالإخبار عن تولي المنافقين عن رسول الله ﷺ وبالتالي التولي عن الله – تعالى–، فقال – تعالى–: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: من الآية ٤٨]، فحالهم حين يكون الحق عليهم لخصمهم الإعراض والتولي؛ وذلك ليقينهم بأن حكم الله – تعالى– ورسوله لا يحابي أحداً، فهم في مثل هذه الحالة يبحثون عن بديل عن ذلك يؤيدهم في ظلمهم.

ولأن المنافقين لم يؤمنوا بالله – تعالى– ورسوله ﷺ حقيقة فإن إذعانهم لحكم الله – تعالى– ورسوله – والمراد به التسليم بذلك ظاهرًا – لا يكون إلا حين يتيقنون بأن

الحق لهم، فيذعنون لحكم الله – تعالى– ورسوله لا إيمانًا وإنما حرصًا على تحصيل حقهم واستيفائه ممن ظلمه، قال – تعالى–: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النور: ٤٩].

ثم تأتي الآية التي تليها مشتملة على وصف المنافقين بمرض القلب مفتتحة بالاستفهام المراد به الإخبار عن حقيقة حالهم، وهو لتوبيخهم من سوء فعالهم[1]، قال – تعالى–: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [النور: من الآية٥٠]، ثم أضاف الله – تعالى– إلى هذا الوصف وصفين آخرين، كلاهما من أمراض القلوب، وهما وصف الريب وهو الشك، والثاني اعتقاد حيف رسول الله ﷺ في حكمه، وكلا هذين الوصفين من أوصاف النفاق، وهما موجبان للكفر والعياذ بالله؛ ولذا قدم السياق القرآني بذكر الأعم وهو النفاق، ثم ثنى بالوصفين الآخرين، فكانا كالتخصيص بعد التعميم، قال – تعالى: ﴿ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ [النور: من الآية ٥٠]، وهو تسجيل على المنافقين بكذبهم في دعوى الإيمان بالله ورسوله – صلى الله عليه وسلم–، كما سبق؛ ثم كشف الله – تعالى– عن واقع الحال، وهو أنهم لرغبتهم في ظلم غيرهم، يمتنعون من التحاكم إلى الله – تعالى– ورسوله؛ ليقينهم بأنهما لا يظلمان ولا يحيفان في حكمهما، ولكن واقع الحال أن هؤلاء هم مرضى القلوب الذين يسعون في ظلم غيرهم، قال – تعالى–: ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: من الآية٥٠][2].

ولأن صدق الإيمان بالله ورسوله ﷺ يقتضي الإذعان لحكمهما والتسليم له، سواء كان حكمهما في صف المؤمن أو ضده جاءت الآية التي تليها كاشفة عن حقيقة الإيمان، قال – تعالى–: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا

(١) انظر: المحرر الوجيز (١٩١/٤).
(٢) انظر: التفسير الكبير (٤١٠/٢٤).

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور: ٥١ - ٥٢]، وهو تعريض بمرض قلوب المنافقين ونفاقهم، وإرشاد من الله - تعالى- لمن أراد الندم والتوبة ولزوم سبيل المؤمنين، وتزكية للمؤمنين المتصفين بذلك.

سابعاً: سورة الأحزاب:

سورة الأحزاب مدنية بإجماع، حكى الإجماع على ذلك ابن عطية[١] والرازي[٢].

وقد تكرر ذكر مرض القلب فيها في ثلاثة مواطن:

الأول: في سياق أحداث غزوة الخندق، وقد كانت في شوال من السنة الخامسة للهجرة على ما ذكره ابن هشام في سيرته[٣]، ورجحه ابن كثير في البداية والنهاية[٤].

وكان سببها والحامل عليها: أن النبي ﷺ لما أجلى يهود بني النضير لنقضهم العهد معه ﷺ، ذهب جماعة من أشرافهم إلى بني قريظة، فاجتمعوا على أن يسعوا جاهدين في تأليب قريش وقبائل العرب لحرب رسول الله ﷺ، فألبوا قريشًا وغطفان وبني أسد ومن استطاعوا من قبائل نجد وتهامة، فنهض الجميع لحرب رسول الله ﷺ ومن معه من أهل الإيمان بالمدينة في جحافل كبيرة وجموع غفيرة، وتحصن رسول الله ﷺ وأهل الإيمان بالمدينة، وأمر النبي ﷺ بحفر الخندق، ورابطوا - رضي الله عنهم- خلفه من ناحية المدينة، ونـــزلت جحافل الكفر في الناحية الأخرى، ومرت على أهل الإيمان أيام عصيبة، لا أصدق من وصف القرآن لها بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣٦٧/٤).
(٢) انظر: التفسير الكبير (١٥٣/٢٥).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢١٤/٢).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٩/٦).

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١]، إلا أن الله - تعالى- بمنه وكرمه رد كيد الكافرين في نحورهم، وتولى - سبحانه- الدفع عنهم، بما لم يكن لأهل الإيمان فيه يد، قال - تعالى-: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥]؛ إمضاء لسنته - تعالى- في أوليائه بأنهم إذا ابتلوا بما لا يد لهم في دفعه لاستئصال شأفة الحق تولى هو - سبحانه- الدفع عنهم، بما يجريه - تعالى- من الأسباب الدافعة لذلك[1].

وقد ذكر (مرض القلب) فيها في ثنايا الحديث عن هذه الغزوة.

فبتأمل الآيات الواردة فيها نلحظ افتتاحها بأسلوب الإنشاء بنداء أهل الإيمان بوصف الإيمان، تذكيرًا لهم بسبب منة الله - تعالى- عليهم بكبت عدوهم، وهو إيمانهم بالله - تعالى-، ثم أمرهم بتذكر السبب الذي جعل الله - تعالى- به إذلال عدوهم ودحره، مما لم يكن لهم فيه إيجاف خيل ولا حمل سلاح، وهي الريح التي أرسلها الله - تعالى- عليهم، والملائكة الذين أيدهم الله - تعالى- بها، ولذا عبر عنها في الآية بـ(نعمة الله)، قال - تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩]، ثم تواصل الآيات في الإخبار بعد أن افتتحت الآية السابقة بأسلوب الإنشاء، بتوصيف حالة أهل الإيمان حين نزل بهم عدوهم، فتذكر بعد وصف الظاهر بإزاغة الأبصار حالة الباطن بشدة الخوف المعبر عنها في الآية بأشد أحوالها، وهي حالة بلوغ القلوب الحناجر التي تحمل على اختلاف الظنون وتنوعها، قال - تعالى-: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١٨/٢٠)، وسيرة ابن هشام (٢١٤/٢)، والبداية والنهاية (١٢/٦).

﴿ ۝١٠ ﴾ [الأحزاب: ١٠]، في ظل تلك الحالة اختبر الله – تعالى– الناس فثبت أهل الإيمان واليقين، وازدادوا من ذلك، رغم شدة الابتلاء وصعوبته، حتى عبر عنه – تعالى– بقوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾ [الأحزاب: ١١]، فأطلق الله – تعالى– عليه لفظ الزلزلة، وجاء مؤكداً، ووصف بالشدة.

في ثنايا الحديث عن هذه الغزوة وملابساتها وأحداثها يأتي ذكر (مرض القلب) فيها، وذلك في الإخبار عن موقف المنافقين منها، فعادة النفاق أن يستتر به أهله؛ خوفًا من بطش أهل الحق، لكن ذلك إنما يكون في حال قوة أهل الإسلام، أما إذا اعترض مسيرة الإسلام ما جرت به سنة الله – تعالى– من شدائد ومحن تمحص أهل الحق وتقوي عودهم، مما يكون كسحابة صيف سرعان ما تنقشع عن حقائق إيمان مدعي الإيمان ومخبآت قلوبهم، يتميز بها الصف، فيظهر أهل الإيمان واليقين، وأهل ضعف الإيمان ومرضى القلوب، وأهل النفاق الذين يسرون الكفر ويظهرون الإيمان.

ولجهل المنافقين وسوء ظنهم بربهم، ومكر الله – تعالى– بهم، يبادرون بكشف نفاقهم في ظل تلك الأحداث؛ ليقينهم بأن في ذلك نهاية الإسلام وأهله.

في سياق الآيات إخبار الله – تعالى– عن مواقف الصف المسلم من أحداث غزوة الخندق، ذلك الصف الذي اشتمل على أصناف ثلاثة: أهل الإيمان واليقين، ومرضى القلوب، وأهل النفاق.

فأما أهل الإيمان واليقين فقد أخبر الله عنهم بوصفهم بقوله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما ضعاف الإيمان، فهم على قول جل المفسرين: كالطبري[1] والزمخشري[1]

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢٢/٢٠).

وابن كثير[٢] غير المنافقين، وقد عبر عنهم في الآيات بمرضى القلوب، وهم الذين ضعف إيمانهم، وحملت قلوبهم شيئًا من الشك وضعف الإيمان، فلما وقع ما وقع في الخندق نافقوا والعياذ بالله، فتنفسوا بما يجدونه في نفوسهم وقلوبهم.

فهم الصنف الثاني، وإن كان بعض المفسرين: كالرازي[٣] لم يذكروا إلا صنفين اثنين: أهل الإيمان وأهل النفاق، وجعلوا الوصف بمرض القلب للمنافقين، والفرق بين الطائفتين – والله أعلم –: أن الطبري والزمخشري وابن كثير والطاهر نظروا إلى أول الأمر فحملوا الأوصاف في الآية عليه، وهو صحيح، وأما الطائفة الثانية كالرازي فنظروا إلى خاتمة الأمر ونهايته، بنفاق مرضى القلوب– والعياذ بالله– بما أظهروه واستقروا عليه، وهو صحيح أيضًا، ويمكن حمل الآية عليه.

والصنف الثالث: أهل النفاق حقيقة، وهم الذين حملوه قبل ذلك، لكنهم استعلنوا به في هذه الغزوة؛ لظنهم أن الغلبة للكافرين، وكلا هذين الصنفين شملهما قول الله – تعالى–: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢][٤].

فذكر مرض القلب في أصناف الصف المسلم كما سبق، والمراد به: مرض الشبهة والعياذ بالله، فإنهم لما أبصروا جحافل الكافرين، وكانوا قبل ذلك سمعوا النبي ﷺ وقت حفر الخندق يعد بفتح كنوز كسرى وقيصر، تنفسوا بما حملته قلوبهم من الشك، نتيجة حالة الرعب والخوف والهلع التي كانوا يعانونها، فقالوا: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب:١٢]، أي: كلام الغرور الذي

(١) انظر: تفسير الكشاف (٥٢٧/٣).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣٨٨/٦)، والتحرير والتنوير (٢٨٤/٢١).
(٣) انظر: التفسير الكبير (١٦١/٢٥).
(٤) انظر: تفسير الكشاف (٥٢٧/٣).

لا حقيقة له[١].

الثاني: في سياق الوصية لأمهات المؤمنين بالتزام الأدب الشرعي في التعامل مع غير المحارم، وهو لهن – رضي الله عنهن– ولسائر نساء المؤمنين.

فافتتحت الآية بأسلوب الإنشاء بالنداء لأمهات المؤمنين أزواج النبي ﷺ، ونودين – رضي الله عنهن– بأخص ما يميزهن عن غيرهن، وهو ارتباطهن برسول الله ﷺ نكاحاً، وفي ذلك تحفيز لهن بالتزام ما سيؤمرن به، وتذكير لهن بما شرفهن الله – تعالى– به عن غيرهن، مما ينبغي أن يكون حاملاً لهن على أداء حقوقه ومراعاة واجباته.

وقد جعل الله – تعالى– التزام ذلك من لوازم تقواه، وهي العمل بطاعته، وهو على تقدير تعلق قوله – تعالى–: (إن اتقيتن) بما بعده، قال – تعالى–: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٢]، والخضوع بالقول يشمل: استخدام الألفاظ التي لا تليق، ويشمل كذلك طريقة الأداء التي لا تليق[٢]، مما يكون سبباً في تعلق مرضى القلوب بهن؛ اعتقاداً منهم أنهن ما فعلن ذلك إلا عن رغبة منهن فيهم.

ثم ذكر في الآية (مرض القلب)، ورتب– تبارك وتعالى– طمع أصحابه فيمن تخضع بالقول بالفاء التي للترتيب والتعقيب، دلالة على سرعة عمل ذلك في القلب المريض، فقال – تعالى–: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: من الآية ٣٢]، والمراد بمرض القلب هنا في قول عموم أهل التفسير: مرض الشهوة لا الشبهة، وهو الميل للغزل والزنا والعياذ بالله، ورجحه ابن عطية – رحمه الله– لأنه لا

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣٧٣/٤).
(٢) انظر: السابق (٣٨٢/٤).

مناسبة لذكر النفاق في السياق[1]، وإن كان ذكر عن بعض العلماء أن المراد به مرض الشبهة بالنفاق[2]، وقد جمع بينهما الطبري، فجعله شاملاً للمنافق؛ لاستخفافه بحدود الله، ولمريض القلب؛ لتهاونه في إتيان الفواحش والعياذ بالله[3].

الثالث: في سياق الإخبار بخطاب رسول الله ﷺ، بإغراء الله – تعالى– وتحريضه وتسليطه ﷺ على من وصفتهم الآية إن لم ينتهوا عما سجل عليهم فيها من النفاق، وهو تهديد من الله – تعالى– لهم من جانب، وتسلية للنبي ﷺ وأهل الإيمان بالتمكين منهم من جانب آخر، قال – تعالى–: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠]، فافتتحت الآية بالتوطئة بقسم رب العزة والجلال بما سبق، ووردت الآية بثلاثة أوصاف: النفاق، ومرض القلب، والإرجاف.

فأما النفاق فهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. وأما (مرض القلب) فالأصل فيه كما سبق خروج القلب عن صحته وعافيته إلى السقم، والمراد به في الآية: صنف من أهل النفاق تميل قلوبهم إلى الزنا والفجور، على أن الوصفين الثاني والثالث هما للمنافقين، فخصصت الآية بعد التعميم، وذلك بذكر النفاق أولاً ثم التثنية بوصفي المنافقين مرض القلب والإرجاف تنبيهاً عليهما وتبكيتاً لأهلهما، وهو وجه في تفسير الآية[4]. وهذا الوجه لم يذكر الطبري– رحمه الله– غيره[5]، وهو المناسب لسباق الوصف ولحاقه، فالوصف الأول للمنافقين والثالث لهم، فالأقرب أن الثاني كذلك لهم، وعليه يدل كلام ابن كثير – رحمه الله– بدليل جعله الآية التي بعدها في حق المنافقين

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣٨٣/٤)، ومعاني القرآن، للفراء (٣٤٢/٢)، وتفسير الكشاف (٥٣٧/٣).
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٢٤/٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥٨/٢٠).
(٤) انظر: المحرر الوجيز (٤٠٠/٤).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٣٢٧/٢٠).

بذكر سنة الله – تعالى– وعادته فيمن سبق منهم في الأمم الماضية[١].

وكلام عموم المفسرين على أن وصف مرض القلب في الآية المراد به: ميله إلى الزنا والفجور، سواء كان من المنافقين أو من غيرهم، وعليه يدل إطلاق الوصف، وهو الوجه الثاني في الآية[٢].

وهناك وجه ثالث ذكره الزمخشري – رحمه الله–[٣] والطاهر – رحمه الله–[٤]، هو: أن الوصف بمرض القلب يراد به ضعف الإيمان وقلة الثبات عليه، وهو تفسير ينتظم الوجهين السابقين، فإن من كان ميالاً إلى الفجور من غير المنافقين لا شك أنه لضعف إيمانه، ومن كان على ذلك من المنافقين فهو لعدم ثباته على الإيمان.

وأما الإرجاف فالمراد به في الآية: ما كان يسعى به بعض أهل المدينة من إدخال الحزن على المؤمنين حين يخرج النبي ﷺ وأصحابه في غزاة بالإشاعة بهزيمتهم ونصر الكافرين عليهم، وهو من صفات المنافقين أيضاً[٥].

فيكون معنى الآية على جعل وصف مرض القلب للمنافقين: لئن لم ينته أهل النفاق يا محمد عن نفاقهم، ومن أخصه ميل قلوبهم واتباعهم للفجور، والإرجاف بأهل الإيمان، لنسلطنك ونحرضنك عليهم، فتنـــزل بهم من النكال ما يكون سبباً لجلائهم عن المدينة، فلا يساكنونك فيها إلا زمناً يسيرا.

ويكون معناها على جعل وصف مرض القلب لغير المنافقين: لئن لم ينته أهل النفاق عن نفاقهم، وأهل الفجور عن فجورهم، وأهل الإرجاف عن إرجافهم لنسلطنك ونحرضنك عليهم، فتنـــزل بهم من النكال ما يكون سبباً لجلائهم عن المدينة، فلا يساكنونك فيها إلا زمناً يسيرا.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤٨٣/٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٥/١٤)، وتفسير الكشاف (٥٦١/٣).
(٣) انظر: تفسير الكشاف (٥٦١/٣).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٠٨/٢٢).
(٥) انظر: تفسير الكشاف (٥٦١/٣)، والمحرر الوجيز (٣٩٩/٤).

ثامنًا: سورة محمد:

وتسمى كذلك القتال، وهي سورة مدنية بإجماع، حكى الإجماع على ذلك ابن عطية - رحمه الله-[1]، وذكر الماوردي - رحمه الله- أنه قول الجميع[2]، وغلط الشوكاني - رحمه الله- من قال بأنها مكية[3].

وقد ذكر مرض القلب فيها في موطنين اثنين:

الأول: في التسجيل على مرضى القلوب والمنافقين بالخوف والجبن عندما ينـــزل الله - تعالى- سورة تأمر بالقتال وتحض عليه.

وقد جاءت الآية في سياق الخبر، واشتملت على وصف طائفتين، يتحد السبب، وهو نـــزول السورة التي تأمر بالقتال، لكن يختلف تعاطي كل طائفة مع ذلك السبب بحسب ما قام بالقلب من الإيمان واليقين.

فصدرت الآية بالفعل المضارع (يقول) الدال على أن حالة أهل الإيمان التشوف والتشوق لما يتجدد لهم من أوامر الله - تعالى- وبيناته التي تكون لهم فيها الفرصة لخدمة دينهم وعقيدتهم والتضحية في سبيلهما[4]، ومع أن هذه الحالة لأهل الإيمان لم يرد التصريح بها في الآية إلا أن التعبير عنهم في الآية بوصف الإيمان دال عليها؛ لأن ذلك من مقتضياته، كما صرح بها في ختام سورة التوبة وقد سبق[5]، وكذلك التصريح بحالة مرضى القلوب يدل على أن حالة أهل الإيمان تقابل حالتهم.

ثم صرحت الآية بـــ (مرض القلب) في ذكر حالة هذه الطائفة عند نـــزول السورة المحكمة الآمرة بالقتال والحاضة عليه، وجاء استعمال الفعل المضارع (ينظرون)

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٥/١٠٩).
(٢) انظر: النكت والعيون (٥/٢٩٠).
(٣) انظر: فتح القدير (٥/٣٥)، والتحرير والتنوير (٢٦/٧١).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٢/١٧٤)، والتحرير والتنوير (٢٦/١٠٧).
(٥) انظر: ما سبق في هذا البحث.

فيها للدلالة على تجدد ذلك منهم، واعتباره سجية لهم، ثم توصيف حالتهم الدالة على منتهى خوفهم وهلعهم من ذلك، وذلك بتشبيه حالهم بحال مصارع الموت الشاخص ببصره خوفاً وهلعاً. والسبب في ذلك: أن تصنعهم ونفاقهم بإخفاء الكفر وإظهار الإيمان لم يعد له جدوى، فهم إنما نافقوا لما وقع في ظنهم الفاسد بأنه سيرد عنهم السوء، أما وقد وصل الحال إلى الالجاء للقتال الذي به تلف النفوس في ظنهم فلا، قال – تعالى–: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ [محمد: ٢٠].

والمراد بـــ (مرض القلب) فيها: إما ضعف الإيمان والتردد فيه، على قول الطبري[١] والزمخشري[٢]، فيشمل المنافقين ومن ضعف إيمانه من غيرهم، أو المنافقين فقط على قول صاحب التفسير الكبير[٣] والقرطبي[٤] والطاهر[٥].

ثم ختمت الآية بالتهديد لهم والوعيد، قال الله – تعالى–: {فأولى لهم}، أي: ويل لهم[٦]، أو يكون خبرا للموت الذي سبق ذكره، فيكون التقدير: فالموت أولى لهم على هذه الحال، أو أولى لهم الطاعة لله – تعالى– من الجبن والخور وكره فرض القتال عليهم، ذكرهما صاحب التفسير الكبير[٧].

الثاني: في إنذار الله – تعالى– للمنافقين بفضح نفاقهم وكشف عوارهم.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧٥/٢٢).
(٢) انظر:تفسير الكشاف (٣٢٤/٤).
(٣) انظر: التفسير الكبير (٥٣/٢٨).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٤٣/١٦).
(٥) انظر: التحرير والتنوير (١٠٨/٢٦).
(٦) انظر: تفسير الكشاف (٣٢٤/٤)، وتفسير الطبري (١٧٥/٢٢).
(٧) انظر: التفسير الكبير (٥٣/٢٨).

فبعد أن سجل الله – تعالى– على المنافقين إبصار الحق ومعرفته، ثم النكوص عنه والرجوع إلى الكفر بعد الهدى أنذرهم – سبحانه– بأن حالهم في المستقبل لن يبقى على الخفاء والستر ولكنه – سبحانه– سيكشف لرسوله ولأهل الحق حالهم، إما بإطلاع الله – تعالى– نبيه عليهم بعلاماتهم الكاشفة، أو بما يجريه الله – تعالى– على ألسنتهم من فلتات تكشف مخبآت قلوبهم، فيكون ذلك دليلا على ما تحمله من الأحقاد والكره للحق وأهله[1]، قال– تعالى–: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [محمد:٢٩].

فافتتحت الآية بحرف (أم) التي للإضراب والعطف[2]، والمراد به: الإضراب عن فساد ظن المنافقين، أن الله – تعالى– يسلم نبيه وأولياءه لكيد المنافقين ومكرهم، وذلك بإبقاء حالهم على الخفاء دائماً، وجاءت بأسلوب الخبر المتضمن للإنكار والتوعد للمنافقين، وهم المعبر عنهم في الآية بـــ (مرضى القلوب)، وهو قول عموم أهل التفسير في الآية، فمرض القلب فيها: مرض الشبهة بالنفاق. ثم استعمل لفظ الإخراج مناسبة لحال المنافق، فإنه لما نافق، وكان لازم النفاق مبالغة المنافق في إخفاء نفاقه، ناسب مع حرصه على ذلك استعمال لفظ الإخراج؛ لأنه: استلال الشيء من مكمنه، بخلاف الإظهار، فإن الشيء قد يظهر وهو في مكانه، ثم إن الإظهار للشيء لا يستلزم حرص صاحب ذلك الشيء على إخفائه، فاستعمل في الآية لفظ الإخراج[3].

ثم كشفت الآية عما تحمله قلوب المنافقين تجاه الحق وأهله، وهو الضغينة، والمراد بها الحقد والعداوة، وجاءت مجموعة إشارة لعظمها في قلوبهم وتنوع أسبابها.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٤/٢٢)، وتفسير ابن كثير (٣٢١/٧).
(٢) انظر: إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين درويش (٢٢٤/٩).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٢٠/٢٦).

تاسعاً: سورة المدثر:

سورة مكية باتفاق العلماء، وممن نقل الإجماع على ذلك ابن عطية[١] والقرطبي[٢].

وقد ورد ذكر (مرض القلب) فيها في سياق الآية التي ذكرت الحكمة من ذكر الله – تعالى– عدة خزنة جنهم، وأنهم تسعة عشر.

فافتتحت الآية بسياق الخبر عن حقيقة خزنة النار، واكتفي عن إثبات قولهم بالتصريح بكونهم ملائكة؛ ليذهب العقل الراشد كل مذهب في توقع قولهم، فكما استقر في النفوس بشاعة منظر الشياطين، كذلك قوة الملائكة، كما قال – تعالى– في سورة التحريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ ﴾ [التحريم: ٦]؛ ولذا فإن من نقص العقل وسفهه قياسهم بموازين البشر، كما فعل بعض صناديد قريش كأبي جهل لما سمع أن النبي ﷺ يذكر ذلك، فزعم أن ردهم والتغلب عليهم أمر هين، بأن يتولى كل عشرة من قريش واحداً من خزنة النار فيغلبوهم[٣]، قال – تعالى–: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ ﴾ [المدثر: من الآية ٣١].

ثم ذكر الحكمة الإلهية من التصريح بذلك، فقال – تعالى–: ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا ﴾ [المدثر: من الآية ٣١]، فعبر عنها بالفتنة، والمراد بها الابتلاء والاختبار ليؤمن من آمن ويكفر من كفر، فتكون خيراً لأهل

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣٩٢/٥).
(٢) تفسير القرطبي (٥٩/١٩).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٨/٢٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٣٨٤/١٠).

الكتاب بموافقة ذلك لما في كتبهم، ويؤكد لهم ما ورد عندهم من صدق محمد ﷺ، فيزدادون يقيناً برسالته، مما قد يكون سبباً في هداية من سبقت له من الله السعادة منهم. ويزداد المؤمن إيماناً إلى إيمانه بما أنـــزله الله – تعالى– من ذلك، وإذا تحقق ذلك في حقهم انتفى عنهم الريب والشك[1].

وفي المقابل حال أهل الكفر ومرض القلب، فهي لهم حيرة وارتياب وكفر والعياذ بالله؛ ولذا قال – تعالى– بعد ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: من الآية ٣١]، فله الحكمة البالغة في هداية من شاء بفضله – تعالى–، وإضلال من شاء بعدله، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقد ذكر (مرض القلب) فيها، فإما أن يراد به النفاق، وهو قول عامة أهل التفسير[2]، ويجاب عن كون السورة مكية، والنفاق لم يظهر إلا في المدينة! بأن الآية أخبرت بما سيحصل لأهل النفاق في مستقبل الحال إذا ظهر.

وإما أن يراد بـــ (مرض القلب) الارتياب والشك، وكان ذلك موجوداً وقت تنـــزل السورة في العهد المكي، وذلك أن كفار مكة كان فيهم الكافر الجاحد، وفيهم الشاك المتردد بين الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه وبين الكفر به وتكذيبه، وبالأخص أنه من قد عرفوه قبل ذلك بالصدق والأمانة، وهو وجه في تفسير الآية ذكره الزمخشري في تفسيره[3].

* * *

(١) انظر: تفسير السعدي (٨٩٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣١/٢٤)، والمحرر الوجيز (٣٩٦/٥)، تفسير القرطبي (٨٢/١٩)، وتفسير ابن كثير (٢٦٩/٨).

(٣) انظر: تفسير الكشاف (٦٨٢/٤)، والتفسير الكبير (٧١٢/٣٠).

الخاتمة وأهم النتائج

بعد التطواف في رحاب هذا البحث حول موضوع مرض القلب في القرآن نخلص إلى جملة من أهم نتائجه في النقاط التالية:

١- أن (مرض القلب) مصطلح شرعي أكثر ما أطلق في القرآن على جانب الشبهات منه، وهو النفاق الاعتقادي، وكذلك أطلق على ضعف الإيمان ومشابهة أهل النفاق الاعتقادي في بعض صفاتهم العملية: كالفسق والميل إلى الزنا.

٢- أن (مرض القلب) يشمل نوعين من المرض كما دل على ذلك الآيات التي ورد فيها: الشبهات والشهوات.

٣- أن جل السور التي ورد فيها ذكر مرض القلب في القرآن مدنية، ما خلا سورة المدثر فإنها مكية، ويحمل مرض القلب فيها على النفاق باعتبار ما سيكون، أو على الارتياب والشك على ما سبق إيراده.

وختاماً أسأل الله الحليم العليم أن يمن علينا برحمته، وأن يرزقنا حبه وحب نبيه، وأن يجعل ما من به - تعالى- ذخراً لنا يوم نلقاه، وأن يغفر لنا ما فيه من خطأ وتقصير، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن.

المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).

المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢- أساس البلاغة.

المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).

تحقيق: محمد باسل عيون السود. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).

الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان. عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٤- إعراب القرآن وبيانه.

المؤلف: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: ١٤٠٣هـ).

الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت). الطبعة: الرابعة، ١٤١٥هـ.

٥- البحر المحيط في التفسير.

المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين

الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ).

المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٦- البداية والنهاية.

المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).

المحقق: علي شيري. الناشر: دار إحياء التراث العربي. الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.

المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ).

المحقق: محمد علي النجار. الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

٨- التحرير والتنوير ((تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)).

المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).

الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٩- تفسير القرآن العظيم.

المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).

المحقق: سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم.

المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ).

المحقق: أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نـزار مصطفى الباز. مكة المكرمة. الطبعة: الثالثة - ١٤١٩هـ.

١١- تهذيب اللغة.

المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ).

المحقق: محمد عوض مرعب. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

١٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ).

المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

١٣- جامع البيان في تأويل القرآن.

المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).

المحقق: أحمد محمد شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٤- الجامع لأحكام القرآن.

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ).

تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية. القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ.

١٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه = صحيح البخاري.

المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي.

المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٦- حلية الأولياء.

المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ).

الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، طبعة ١٤٠٩هـ. بدون تحقيق.

١٧- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.

المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).

الناشر: دار الفكر - بيروت.

١٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون.

المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ).

المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط. الناشر: دار القلم، دمشق.

١٩- زاد المسير في علم التفسير.

المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ).

المحقق: عبد الرزاق المهدي. الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.

٢٠- سنن الترمذي.

المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ).

تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥). الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر. الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٢١- السيرة النبوية لابن هشام.

المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ).

تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٢٢- شرح السنة.

المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ).

تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٣- شفاء العليل في منازل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى:

٧٥١هـ).

الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان. الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٢٤- صفات المنافقين.

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).

الناشر: الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات. عام النشر: ١٤١٠هـ.

٢٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين.

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).

الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر. الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.

٢٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري.

المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي.

الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.

قام بإخراجه وصححه وأشرف عليه: محب الدين الخطيب. تعليق العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٢٧- فتح القدير.

المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ).

الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت.الطبعة: الأولى -

١٤١٤هـ.

٢٨- فضائل الصحابة.

المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ).

المحقق: وصي الله محمد عباس. الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.

٢٩- في ظلال القرآن.

المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ).

الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة. الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢هـ.

٣٠- كتاب التعريفات.

المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ).

المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٣١- كتاب العين.

المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ).

المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. الناشر: دار ومكتبة الهلال. الطبعة: بدون.

٣٢- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار.

المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ).

المحقق: كمال يوسف الحوت. الناشر: مكتبة الرشد – الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٣٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل.

المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).

الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ.

٣٤- لسان العرب.

المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى (ت: ٧١١هـ).

الناشر: دار صادر – بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

٣٥- مجموع الفتاوى.

المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ).

المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٣٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ).

المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ.

٣٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).

المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي. الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

٣٨- مساوئ الأخلاق ومذمومها.

المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ).

حققه وخرج نصوصه وعلق عليه: مصطفى بن أبو النصر الشلبي. الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، جدة. الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣٩- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ.

المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ).

المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ).

المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي.

الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤١- معاني القرآن.

المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ).

المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي. الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر. الطبعة: الأولى.

٤٢- معاني القرآن وإعرابه.

المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ).

الناشر: عالم الكتب – بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤٣- معجم مقاييس اللغة.

المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ).

المحقق: عبد السلام محمد هارون. الناشر: دار الفكر. عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٤- التفسير الكبير.

المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ).

الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ.

٤٥- المفردات في غريب القرآن.

المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ).

المحقق: صفوان عدنان الداودي. الناشر: دار القلم. دمشق. الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ.

٤٦- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ).

الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٤٧- نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق.

المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ).

الناشر: المكتب الإسلامي. الطبعة: الطبعة الثالثة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٨- النكت والعيون.

المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ).

المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

٤٩- النهاية في غريب الحديث والأثر.

المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ).

الناشر: المكتبة العلمية. بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي.

* * *